

## الفصل الثاني عشر

### الجغرافيون والمؤرخون في القرن الخامس

#### الجغرافيا<sup>(١)</sup>

إن كلمة « الجغرافيون » ، التي وردت في العنوان ، قد تكون ، على صحتها ، مضللة إلى حد ما . ولذا فإنها تحتاج إلى مزيد بيان .

سنقصر بحثنا على أربعة رجال<sup>(٢)</sup> ، هم قادة الحملات البحرية . ولم يكن هؤلاء الرجال ، جغرافيين بالمعنى الدقيق ، بل كانوا مكتشفين ومغامرين . وكانت الدوافع التي ساقهم إلى هذه الحملات ، سياسية واقتصادية . والذي يعيننا من الأمر ، هو ما أدت إليه من زيادة معلوماتنا الخاصة عن سطح الأرض . وقد تكون هذه الحملات حقيقية . إلا أننا لا نستطيع أن نقطع في الأمر بيقين .

وقد ألق اثنان منهم ، وهما سكيلاكس وستسيس Scylax and Sataspes ، تحت إشراف الفرس . أما الآخران ، وهما هنون وهملكون (Hamon and Hinilcon) ، فقد هكنا كانا من القرطاجيين ، الذين كانوا في الواقع إن لم يكونوا قانونا ، حلفاء للفرس ضد اليونانيين ، إذ كانت هنالك عداوة مستحكمة ، في عرض البحر المتوسط وطوله ، بين المستعمرات اليونانية ، من ناحية ، والمستعمرات الفينيقية والقرطاجنية من ناحية أخرى . وهذه الاكتشافات ، التي ستحدث عنها فيما يلي ، تمثل الجانب العلمي ، في القرن الخامس ، من ذلك الصراع المتصل بين الشرق والغرب .

#### سكيلاكس الكاريندي

قال هيرودوت : « اكتشف دارا معظم آسيا . وهناك حيث نهر الهندوس » ، توجد أعداد كبيرة من التماسيح ، لا يفوقه فيها سوى

نهر واحد في العالم . وعندما أراد دارا أن يكتشف مصبه في البحر ، أرسل بعض السفن بقيادة سكيلاكس ، الذي ينتمي إلى بلدة كاريندة ، ومعه بعض الرجال الذين وكل أمرهم إليه . وهؤلاء أقبلوا من مدينة كاسپاتيروس ، في إقليم پاكتيك ، وساروا مع النهر في اتجاه الشرق ، وعند الغروب وصلوا إلى البحر ، واتخذوا سبيلهم فيه نحو الغرب ، حتى بلغوا ، في الشهر الثالث عشر ، المكان الذي أرسل منه ملك مصر ، الفينيقيين - الذين ذكروا آنفاً - ليجروا حول ليبيا . وبعد هذه الرحلة البحرية ، أخضع دارا الهنود ، وأطلق يده في هذا البحر . وهكذا عرف أن آسيا ، باستثناء الأجزاء التي تواجه الشمس ، كانت تشبه ليبيا « (٣) .

ومن هنا نعلم أن سكيلاكس هذا ، كان من أبناء كارينده (٤) ، وأنه ظهر في زمن دارا الأول (ملك الفرس من سنة ٥٢١ - ٤٨٥ ق.م) . ولعل المرء يتوق إلى معرفة الطريقة التي تمكن بها هذا الشخص ، من بلوغ أفغانستان (على بعدها الشاسع) ؛ ولكن الأمر لم يكن من الاستحالة بمكان .

فلعل الولى الفارسي ، الذي كان يقيم في إقليم الهندوس الأعلى ، رغب في معرفة مصب النهر في البحر ، وكيفية اتصاله بالعالم الغربي . فإذا الحظ أسعف سكيلاكس ، (فما يختص بالرياح الموسمية) (٥) ، فالملاحه من دلنا الهندوس ، إلى رأس البحر الأحمر ، على الرغم من صعوبتها ومشقتها ، لم تكن مستعصية ، حتى على السفن الصغيرة جداً وكثيراً ما قطعها السفن العربية (٦) . وما أكد إمكان تحقيق رحلة سكيلاكس ، ذلك النقش الذي تركه دارا في السويس ، وذكر فيه أنه شق قناة من النيل إلى البحر الأحمر ، وأمر السفن أن تفلح من السويس إلى فارس (٧) .

إذن كانت رحلة سكيلاكس ، محتملة جداً ، والظاهر أن هنالك وصفاً كتب عنها ، وتداولته أيدي الكتاب المتأخرين ، ومنهم ، على سبيل المثال ، مؤلف كتاب (Periplus of Scylax of Caryanda) . وهذا الكتاب يتناول وصف الرحلة عبر البحر المتوسط والبحر الأسود إلخ . وفي استطاعتنا أن ندعو

المؤلف (سكيلاكس المدعى) ، لأنه من المؤكد أن الكتاب ألف في زمن متأخر ، وقد يرجع تاريخه إلى سنة ٣٦٠ - ٣٧٠ م . وجود مثل هذا الأثر المنحول ، يؤكد لنا وجود الأصل الذي تركه سكيلاكس ، كما يؤكد لنا رحلته عبر البحر العربي .

ونضيف إلى ذلك ، أن أى شك قد يخامر عقولنا ، في هذا الشأن ، يجب أن يتعلق بسكيلاكس نفسه ، لا بوقوع هذه الرحلة فعلاً . فنحن على يقين ، من أن نفراً كبيراً من الناس ، أبحروا من نهر الهندوس ، عبر البحر العربي ، حتى بلغوا البحر الأحمر ، وذلك قبل القرن الخامس . ويعتبر سكيلاكس أول هؤلاء الملاحين ، الذين حفظت لنا أسماؤهم .

### ساتاسپيس الأخميني

يذهب هيرودوت إلى أن ساتاسپيس كان فارسياً، ينتمي إلى الأسرة المالكة، وكانت أمه أخت دارا . وكان قد اغتصب فتاة من أسرة نبيلة ، فحكم عليه بأن يوضع على خازوقى . لكن أمه تضرعت إلى الملك الجديد ، كسر كسيس (ملك على الفرس ٤٨٥ - ٤٦٥ ق.م) أن يستبدل بهذا العقاب ، عقاباً آخر ، زعمت أنه أشد وطأة منه . « وهو يقضى عليه بأن يبحر حول شواطئ ليبيا ، حتى ينتهى من رحلته ويأتى إلى خليج العرب . وقد أقر كسر كسيس هذا التعديل ، وأقنع ساتاسپيس إلى مصر ، حيث زوده المصريون بسفينة و ببعض الملاحين . وسار حتى قطع أعمدة هرقل ، وعندما تم له ذلك ، ودار حول الرؤوس الليبية، التي تدعى سولويس Soloeis<sup>(٨)</sup>، انحدر نحو الجنوب . ولما كان قد قضى شهوراً عديدة ، يضرب في عرض البحر ، وما تزال أمامه رقعة أكثر اتساعاً من التي قطعها ، عاد أدراجه إلى مصر ، وقصد كسر كسيس ، وذكر له في قصته التي رواها عن الرحلة ، أنه عندما بلغ غاية ما قطعه من هذه الرحلة ، مر على بلاد يعمرها أقزام ، وهم يرتدون ملابس حيكت من خوص النخيل . وعندما كان يلتقى ، هو ورجاله ، مراسيمهم ، كان هؤلاء الأقزام يفرون إلى

الجبال ، ولكنه ورجاله لم يقترفوا إساءة ما عندما نزلوا إلى البر ، ولم يسلبوا هؤلاء الناس شيئاً ، سوى ما يتبلغون به . وقد برر عدم مضيه في رحلته ، حتى ينتهي من الدوران حول شواطئ ليبيا ، بأن السفينة تسمرت مكانها ، ولم يعد في استطاعتها المضي قدماً . ولكن كسر كسييس ، لم يصدق ما أدلى به ساتاسبيس ، ولما كان قد تخلف عن إنجاز المهمة التي طلب إليه تنفيذها ، وضعه على الحازوق ، (وعاقبه) على تلك التهمة التي رمى بها من قبل<sup>(٩)</sup> .

ورواية هيرودوت ، تشتمل على الكثير من التفاصيل المضللة . ففي المقام الأول ، نعتقد أن أم ساتاسبيس كانت تعنى قطعاً الطواف حول أفريقيا بجرأ . ولم تبالغ حين قالت إنه عمل من الصعوبة بمكان عظيم ، فقد كان جميع ملاحى البحر المتوسط ، يفرقون من أخطار المحيط المجهولة . ومن ناحية أخرى ، قيل إن ساتاسبيس ، استأجر سفينة مصرية ومعها ملاحوها ، ومن المحتمل أنه استأجر في مصر سفينة فينيقية ، بملاحيها . فقد كانت هنالك علاقات تجارية بين الشعبين منذ زمن لا يعرف أوله على وجه التحديد . وكانت الزوارق الفينيقية تمخر عباب النيل في عهد تحتمس الثالث (القرن الخامس عشر) . ومن ناحية ثالثة ، إلى أى نقطة من ساحل أفريقيا الغربي ، وصل ساتاسبيس في رحلته تلك ؟ أضف إلى ذلك ، أنه بعد أن ترك السولويس ، سار إلى الجنوب واستمر عدة أشهر ، حتى تسمرت سفينته وعجزت عن المضي قدماً . فهل بلغ منطقة الرياح الاستوائية الساكنة ، عند خط عرض رأس (فرد) ؟ أم أنه توقف بسبب الرياح التجارية ، والتيار الذى يتجه من ساحل غينيا نحو الشمال ؟

وما يدعوننا إلى الاعتقاد بأنه بلغ ساحل غينيا ، ذلك الوصف الذى أورده عن هؤلاء الأقزام الذين اتخذوا من خوص النخيل لباساً . ومهما يكن من أمر ، فلو فرضنا أنه بلغ في رحلته هذا المدى (ولنفرض أنه خط عرض ١٠) ، فقد كان ما يزال بينه وبين الهدف المعين ، أمد بعيد جداً . والظاهر أن القدامى ، كانوا لا يستطيعون تصور مدى اتساع القارة الإفريقية<sup>(١٠)</sup> .

وحوالى مطلع القرن الخامس ، عازمت حكومة قرطاجة على اكتشاف المحيط ، أو على الأصح سواحله فقط ، ولذا قررت إرسال حملتين تفلعان من مضيق جبل طارق ، وتتجه إحداهما نحو اليسار ، والأخرى نحو اليمين . وقد أسندت قيادة الحملة الأولى إلى هنون ، كما وكل هملكون بالحملة الثانية .

### هنون القرطاجي

اتخذت رحلة ساتاسبيس سبيلها حول الساحل الغربي لأفريقيا ، فى عهد كسركسيس (سنة ٤٨٦-٤٦٥ ق.م) ، وبما هو جدير بالذكر ، أن رحلة مشابهة حدثت فى ذلك الوقت أيضاً - أو قبله بقليل - ، وقد كانت تحت إشراف القرطاجيين (١١) .

غادر الحاكم (سوفيت) (١٢) هنون قرطاجة ، على رأس أسطول عدد قطعه ستون سفينة ، من ذوات الخمسين مجدافاً ، وكانت تقل ثلاثين ألفاً من الرجال والنساء (١٣) . ويتضح من ذلك ، أن غاية القرطاجيين لم تكن الاستكشاف فحسب ، بل الاستعمار أيضاً . ولعلمهم أرادوا من ذلك ، أن يتهجوا نهجهم القديم فى إنشاء سلسلة من المحطات التجارية ، على الموانئ الملائمة ، لكى توفر لهم حاجاتهم التجارية ، وتؤمن سيادتهم (١٤) . وعندما عاد هنون إلى قرطاجة ، كتب تقريراً عن رحلته ، باللغة القرطاجية ، وقد نقش هذا التقرير على نصب أقيم فى معبد ملقارت ووصلت إلينا صورة منه ، كتبت باللغة اليونانية ، تحت اسم رحلة هنون Periplus of Hannon .

وأول مكان ذى أهمية ، ألقوا فيه مراسيمهم ، كان جزيرة كرن Cerne التى كانت تبعد عن المضيق قدر بعد قرطاجة عنه . وهذا ما يساعدنا على تقدير مكانها اليوم ، وهى جزيرة هرن ، التى تقع عند مصب نهر الذهب . وبعد أن أرسوا قاعدة فى كرن ، انطلقوا منها فى اتجاهين : أحدهما نهر السنغال ، والثانى رأس فرد (دكار) ، فنهر الجامبيا ، وخليج بساجوس ، فضيق شريرو (فى سيراليون عند خط عرض ٣٠ : ٧ ش) . وأنا أذكر هنا

الأسماء الحديثة ، لا تلك الأسماء التي وردت في النص المشار إليه ، إذ أن تحقيق كل اسم منها ، يتطلب بحثاً خاصاً . ونحن لا نغنى هنا بالتفاصيل الطبوغرافية . وأهم ما في الأمر ، أن هنون سار على محاذاة شاطئ أفريقيا الغربي ، لمسافة تقرب من ٢٦٠٠ ميل ، حتى بلغ رأس بلمباس ، حيث ينحرف الشاطئ نحو الشرق . ولكن هل بلغ هنون ، في مسيره نحو الجنوب ، أكثر مما بلغ ساتاسبيس؟ ربما تم له ذلك ، لكن الأمر ليس ذا بال . وقد نغزو إلى هذين الملاحين ، أو إلى أحدهما على الأقل ، فضل استكشاف الساحل الشمالي الغربي من أفريقيا . ولكي نقدر النتائج التي حققها حتى قدرها ، بحسبنا أن نذكر أن التوغل جنوباً في اكتشاف الساحل الأفريقي ، لم يتم إلا بعد انقضاء ما يقرب من ألفي سنة . وقد تحقق ذلك على أيدي الملاحين البرتغاليين ، حوالي منتصف القرن الخامس عشر .

ولكن ما الذي يحملنا على تصديق تقرير هنون؟ الذي يدعوننا إلى ذلك هو أنه يحتوي على حقائق تتفق مع المشاهدات الحديثة، وعلى هذا لا يمكن أن تكون من نسج الخيال . ومن الحق أنه ليس هنالك تحديد دقيق للمواضع والأنهار ، ولكن هذه التحديدات تشكل وحدة متماسكة ، مما يدعوننا إلى أن نثق بدقتها . والمعلومات الخاصة بالأجناس البشرية ، ليست في مجموعها أقل إقناعاً . وهي تشير إلى حرق العليق ، وإلى أناس كثاث الشعر ، يدعون في النص اليوناني بالغوريلا ( أقزام أو عبيد أو قردة ) . وقد قبضوا على ثلاث إناث ، وسلخوا جلودهن .

وكان هذا التقرير شديد الإيجاز ، وقد أخطأ الكتاب المتأخرون في فهمه ، ومنهم بلييني ، ( النصف الأول من القرن الثاني ) الذي ذكر أن هنون قطع جميع الطريق إلى الجزيرة العربية ، وقد لاقى هذا الخطأ قبولا ، حتى عند بعض بعيدى النظر ، أمثال هنرى الملاح ورتشارد هلكويت<sup>(١٥)</sup> .

## هملكون القرطاجي

عرفنا هملكون ، من إشارة عابرة وردت في كتاب بليني (النصف الثاني من القرن الأول)<sup>(١٦)</sup> ، الذي يذكره جنباً إلى جنب مع هنون ، ومن قصيدة لاتينية ، للشاعر أفينوس (النصف الثاني من القرن الرابع) ، وهي منقولة عن القصيدة اليونانية ، التي نظمها «ديونيوسوس بيريجيتس» (النصف الثاني من القرن الأول) ، وبليني وديونيوسوس ، يعودان بنا إلى القرن الأول ، مما يترك خلخلة واضحة في التواتر . ومع هذا ، ليس هنالك ما يدعونا إلى الشك في حقيقة رحلة هملكون .

ومن المصادر الرئيسية ، لأفينوس وديونيوسوس ، ذلك التقرير الذي كتبه قبطان مسيلي كان قد زار طرطسوس<sup>(١٧)</sup> ، حوالي نهاية القرن السادس ، وكان على علم بالساحل الإسباني . وقد تمت رحلة هملكون ، بعد خراب طرطسوس مباشرة ، أي حوالي بداية القرن الخامس .

وكان قد أرسل لاستكشاف الساحل الغربي لأوروبا . ووصل إلى مجموعة من الجزر تدعى جزر الأويستريمينيدس وبلغ رأساً يدعى بهذا الاسم أيضاً . وهو شبه الجزيرة الأرموريكية (بريتاني) ، وبعض الجزر التابعة لها . وقد أشار إلى نشاط سكان الجزر وذكائهم ، وإلى أنهم ملاحون مهرة ، على الرغم من أنه ليس لديهم سفن خشبية (كالفينيقين) ، بل عندهم قوارب تصنع من الجلد المحيط . (Coracles) وهم يبحرون إلى جزر هيرنيا والبيون (إيرلندا وإنجلترا) . وقد كان الملاحون الفينيقيون يبحرون إلى هذه الجزر للتجارة (تجارة القصدير)<sup>(١٨)</sup> ومن الجائز أن هملكون ، في طريقه إلى بريتاني أو عقب ذلك أو في طريقه للعودة ، قذف به إلى منطقة من المحيط ، حيث الرياح ساكنة ، «وحيث ترتفع الحشائش البحرية ، في الدوامات المائية ، بحيث تعوق سير السفينة ، كما يعوقها دغل ملتف»<sup>(١٩)</sup> .

وقد قدر بعض المؤرخين ، أنه يشير بذلك إلى بحر السرجاسو ، وهو عبارة

عن منطقة متسعة من الماء الساكن ، نسيباً ، تقع في المحيط الأطلسي ، وفيها تتجمع الحشائش ، كما تتجمع في الأنهار ، تحت ظروف مشابهة . وليس من اليسير قبول هذا التفسير ، لأن بحر السرجاسو ، يبعد عن أوروبا كثيراً<sup>(٢١)</sup> . وربما كان الملاحون الفينيقيون قد بلغوا الجزر السعيدة<sup>(٢٢)</sup> ، إلا أنه من العسير أن نصدق أنهم وصلوا ، إلى الأزور ثم إلى السرجاسو<sup>(٢٣)</sup> .

ولإجمالاً نقول : إن أوصاف هذه الرحلات البحرية الأربع ، عبر البحر العربي ، أو على محاذاة شاطئ أوروبا من ناحية الأطلسي ، أو شاطئ شمال أفريقيا ، تثير عنايتنا ، أكثر مما تثير دهشتنا . وأعمال كهذه ، كما وصفت سابقاً ، أكبر خطراً من تأملات اليونانيين في اللانهاية ، أو في اللامنطقية الحسائية ، وقد كان ما حققه اليونانيون في حقل الرياضيات مدهشاً حقاً . وقد تفوقوا في ذلك ، لا على معاصريهم فحسب ، بل على الكثير من معاصرينا أيضاً . ولكننا ، من ناحية أخرى ، نقدر أن الملاحين القدامى ، وبوجه خاص الفينيقيين وخلفاءهم القرطاجيين ، اضطلعوا بأعمال من الممكن أن تقرن إلى ما ذكرنا ، أو بأعمال تحتاج إلى مزيد من الجرأة ، وذلك ليس في القرن الخامس فحسب ، بل قبله بكثير .

وعند التأمل في إبحارهم حول شواطئ مراكش ، وبنائهم المحطات التجارية في السولويس ، وفي مواضع أخرى ، نرى أن ذلك يحتاج إلى الجرأة أكثر مما يحتاج إلى العلم . وقد كان فن الملاحة عند القرطاجيين ، كافياً لتحقيق مثل هذه الأغراض ، بل إنه كان يكفي أيضاً لنقلهم ، خطوة تلو الأخرى . إلى مدى أبعد على الشاطئ الإفريقي ، في اتجاه الجنوب ، ومكنهم من التمهيد لتلك الأعمال التي حققها البرتغاليون في القرن الخامس عشر . وقد توقفت حركات الاستعمار القرطاجي ، نتيجة لذلك الصراع الذي احتدم بين قرطاجة وروما ، وكان بالنسبة إليهم معركة حياة أو موت ، وقد شل حركة الأسطول القرطاجي في البحر المتوسط أو قريباً منه ، إلى أن انتهى بقاء قرطاجة سنة ١٤٦ ق م . ولا بد لنا أن نلاحظ أخيراً ، أن الذي يدعو إلى الدهشة في تلك التقارير

الأربعة ، ليس ما تصفه من أعمال ، بل هو مجرد وصولها إلينا . ولا مناص لنا من أن نفترض أنه قد جرت في الأزمنة القديمة ، محاولات من هذا القبيل ، أو من نوع يفوقه ، ولكن أخبارها لم تصلنا ، لأن هؤلاء المغامرين قضوا نحبهم ، فلم يؤوبوا ، أو لأنهم كانوا ينفرون من الدعاية ، أو لأنهم لم يكونوا على حظ من البيان ييسر لهم رواية رحلتهم . ونفسية الملاحين ، والمغامرين ، تختلف كثيراً عن نفسية الكتاب . والحقيقة أن أكثرهم كانوا يجهلون الكتابة جهلاً مطبقاً ، أو يعجزون عن تدبير وصف واضح . وعلينا أن نعتبر سكيلاكس ، وساتاسبيس ، وهنون ، وهملكون ، قلة تمثل كثرة ، أو نماذج باقية من الملاحه في العصر القديم<sup>(٢٣)</sup> .

وقد انحدر إلينا اثنان من هذه التقارير . والفضل في ذلك يعزى إلى هيرودوت ، ومصنفه يحوى الكثير من الحقائق التي تمتاز بأهميتها الجغرافية . وستناولها بالدرس في حديثنا القريب عنه .

وأهم حادث جغرافى ، في هذا القرن ، وقع في نهايته ( سنة ٤٠١ ق.م ) عندما قاد كسينوفان ، عشرة آلاف من جنود اليونان المرتزقة ، الذين تشتتوا في أعالي دجلة ، عبر جبال أرمينيا وقبادوسيا إلى طرابيزون ( Trapezus ) ، على البحر الأسود<sup>(٢٤)</sup> ، وهذا التفهقر الذى وصفه كسينوفان أبلغ وصف ، يعد من أخطر الأعمال التى وعىها ذاكرة الجنس البشرى ، من هذا القبيل .

و « صعود » كسينوفان Anabasis ، الذى كتب حوالى ٣٧٩ - ٣٧١ ق.م . يعتبر من روائع الأدب التاريخى الجغرافى ، وهو أول وصف مسهب لمنطقة شاسعة ، وللسكان الذين يعمرونها ، على الرغم من أن الغاية منه ، لم تكن فى أصلها جغرافية ، وهو ، فضلاً عن أنه من أحسن الكتب فى موضوعه ، يعتبر الأثر الأول فى هذا الباب<sup>(٢٥)</sup> .

**المؤرخون : هيرودوت ، ثوكسيديديس ، كتسياس**

شهد النصف الثانى من هذا القرن ، مولد علم التدوين التاريخى ؛ أى نشوء

فرع جديد من فروع العلم ، يعنى بوصف تجارب الإنسان وصفاً دقيقاً . ويرى البعض أن تدوين التاريخ ، لا يصحح أن يدعى علماً ، لأن المعلومات التاريخية ، تحتل الكثير من الشك ، فوق أنها مضللة . وهكذا وجهوا إلى اللوم ، لأننى أفردت له جزءاً كبيراً فى مقدمتى Introduction . وأظن أن اعتراضاتهم لا تقوم على أساس ، لأن الجهود العلمية تتميز باتجاهها إلى البحث عن الحقيقة ، بالقدر الموجود منها ، وإلى التقرب من دائرتها ، بالقدر الذى تسمح به الظروف . وهذا التقرب الذى يمكن التوصل إليه ، أو الذى يتوصل إليه فعلاً ، يختلف باختلاف الموضوعات العلمية، والصفة العلمية التى تكتسبها جهودنا ، تعتمد على الغاية التى نسعى إليها ، وعلى نوع الأساليب التى نتبعها ، أكثر مما تعتمد على درجة تقربنا من الحقيقة ، فى النتائج التى نهتدى إليها . ولا ننكر أن الحقائق التاريخية لا يمكن أن تكون قاطعة ، ومع ذلك كانت فى القرن الخامس أقل غموضاً وتضليلاً من معظم الحقائق الطبيعية .

### هيرودوت الهاليكارناسى

ولد هيرودوت - ابن ليكسيس ودريو - فى هاليكارناسوس إحدى مدن كاريا ، حول سنة ٤٨٤ ق.م<sup>(٢٦)</sup>. وقد كانت كاريا (التي تقع فى الجنوب الغربى من آسيا الصغرى) ، إحدى مستعمرات الدوريين ، ولكنها كانت أكثر تأثراً بالثقافة التى ازدهرت فى المدن الأيونية المجاورة . وفى القرن الخامس ، كان سكان كاريا الذين يتكلمون اليونانية ، ينطقون باللهجة الأيونية . وفى طفولة هيرودوت ، كانت كاريا إقطاعية للإمبراطورية الفارسية . وقد اضطرت هيرودوت ، وهو ما يزال حدثاً ، إلى مغادرة وطنه ، بسبب الاضطرابات السياسية . وقضى فترة من الزمن فى ساموس ، ثم أمعن فى الترحال . وزار أثينا ، حيث تعرف إلى بركليس وسوفوكليس ، وقضى باقى حياته فى تورى (أسست سنة ٤٤٣) ، حيث توفى فى بداية الحرب البيلوبونيسية (٤٣١ - ٤٠٤) ، أى حول سنة ٤٢٦ ق.م. وقد كان يدعى فى الزمن القديم (حتى القرن الثالث

من هذا العصر) ، بهيرودوت التورى .

وقد قام برحلات واسعة ، فزار مصر ، وأبحر فى النيل حتى بلغ أسوان والإلفنتين (٢٧) ولعله ذهب إلى برقة أيضاً . ومرّ بغزة وصور ، وأبحر فى الفرات حتى بلغ بابل . وتعرف إلى المنطقة الشمالية من بحر إيجه ، حتى مدينة طاسوس . وأهم ما فى رحلته ، أنه زار سكيثيا ، التى تقع على شمالى البحر الأسود ، ولا بد من أن يكون قد قضى بعض الوقت فى أولبيا ، قرب مصب الهيبانوس (Bug) وفى مكان يبعد عن المصب قليلا ، فى مجرى النهر .

وكثير من الحقائق التى ذكرها ، استمدتها من مشاهداته الخاصة ، والبقية الباقية ، حصل عليها عن طريق الرواية . ولا بد أنه التقى فى بعض المواضع ، كأثينا ودلنى ، بأناس أتوا من جميع أجزاء العالم اليونانى . وقد أطلق عليه شيشرون لقب « أبو التاريخ » (٢٨) . وعلق به هذا اللقب المشرف منذ ذلك الحين ، وهو فى الحقيقة أهل له . وإذا صرفنا النظر عن المؤرخين العبرانيين ، كمؤلف كتب صموئيل ( فى القرن السابع قبل الميلاد ) ، فلا بد لنا من أن نذكر أنه كان فى بلاد اليونان عدد من مدونى الحوليات التاريخية . وقد سبق أن تحدثنا عن أحد الرعايا الفرس ، واسمه هيكاتيوس ، الذى ينتمى إلى ميليتوس ، وأباح هيرودوت لنفسه أن يتناوله بالتجريح ، حين كان يرجع إليه . كما أنه كان هنالك غيره من مدونى الحوليات . ولكن هيرودوت كان أول من وضع كتاباً محكم الأسلوب ، سهل القراءة . والحقيقة أنه ألف أول قطعة رائعة فى النثر اليونانى ( شكل ٦٧ ) (٢٩) .

• • •

ولنبحث الآن ، فى هذا الأثر العظيم .

إنه وصف لبلاد اليونان ومصر وآسيا الصغرى ، فى ماضيها وحاضرها . والغاية التى رى إليها ، هى وصف ذلك الصراع العظيم الذى احتدم بين آسيا واليونان ، منذ زمن كروسوس (ملك ليديا من سنة ٥٦٠ - ٥٤٦ ق.م) ، حتى زمن كسر كسيس ونهاية الحروب الفارسية ، أو بعبارة أدق ، حتى



الاستيلاء على سستوس (٤٧٩-٤٧٨) (٣٠). وقد قسم هذا المصنف إلى تسعة كتب ، عنون كل منها باسم إحدى إلهات الشعر (٣١). ووضع هذا التقسيم ، نحاة الإسكندرية ، وكان معروفاً على عهد لوسيانوس (١٢٠ - ٢٠٠) . ولكن هيرودوت عندما يشير إلى مصنفه هذا ، لا يذكر أى كتاب ، بل يدعوه بالتاريخ . (Logos) (٣٢)

ويظهر لنا غرضه بوضوح ، فيما قاله في الفقرة الأولى منه :

« الذى تعلمه هيرودوت الهاليكارناسى عن طريق البحث ، تجده هنا ماثلاً بين يديك ، وذلك حتى لا تنطمس ذكرى الماضى فى أذهان الرجال على مر الأيام . وحتى لا تفتقر تلك الأعمال العظيمة الرائعة التى اضطلع بها اليونانيون والأجانب - وخاصة أسباب نشوب الحرب بينهم - إلى من يظهرها للملأ » .

وهذه الفذلكة البسيطة ، لها تأثيرها ودالاتها فى آن واحد . فقد كانت غايته أن يسجل للأجيال التالية تلك الأعمال العظيمة ، التى قام بها اليونانيون والبرابرة (٣٣) (الأجانب) أيضاً .

وهذا أمر يسترعى الانتباه ، لأن بعض هؤلاء الأجانب ، الذين يشير إليهم ، كانوا إلى مدة قريبة ، أعداء لليونانيين ، فى حرب ضروس ، أوشتكت على نهايتها فى ذلك الوقت ، الذى كان فيه هيرودوت عاكفاً على كتابة تاريخه . فما الذى حدث، له ؟ هل كان يفتقر إلى الشعور الوطنى ؟ لقد كان رجلاً متمدناً ، حاول أن يفهم بأمانة ولطف ، أنباء الأمم الأخرى . ويجب أن نضيف إلى ذلك ، أن تلك النظرة العالمية ، كانت أكثر ملاءمة له ، منها لرجل ينتمى إلى طيبة أو أثينا . لأنه كان ينتسب إلى كاريا ، التى مصرها للدوريون ، ولكنها كانت خاضعة لمؤثرات أيونية وفارسية ، وهكذا كانت شبه شرقية (٣٤). ولم تكن الأسرة الحاكمة فيها هليينية ، فالملكة أرتيميزيا الأولى ، التى يتحدث عنها هيرودوت حديثاً وديماً (٣٥)، كانت من أتباع كسرکسيس . وقد رافقته فى حملته بخمس سفن ، كانت من أحسن سفن أسطوله ، ولم يتفوق تاريخ العلم

عليها إلا تلك السفن التي أتت من صيدا .

وقد كتب بلوتارك (النصف الثاني من القرن الأول)، كتاباً دعاه (De malignitate Herodotis) « تحيز هيرودوت » اتهم فيه أبا التاريخ ، بأنه ميال إلى البرابرة (الأجانب) ، وهذه الصفة تقابل كلمة « العالمي » ، في أمم الاتحاد السوفيتي اليوم . واتهمه بأنه مجحف ، وذلك لأنه لم يكن متحاملاً . وهو بهذا يذكرنا ببعض المتعصبين في أيامنا هذه ، الذين يرتابون في كل إنسان لا يكون متبجحاً في شعوره الوطني مثلهم . ولنلحق هذه المعجزة أيضاً ، بسلسلة المعجزات اليونانية ؛ وهي أن أول مصنف يوناني في التاريخ ، كتبه رجل شهد بأمر عينه كثيراً من وقائع تلك الحرب الرهيبة التي دارت رحاها بين فارس واليونان ، ومع ذلك كله ، استطأ أن يتحدث عنها بدمائة وإنصاف ، دون أن يطوى نفسه على ضعينة عنصرية<sup>(٣٦)</sup> . وبعد أن نوهنا بهذه الفضيلة الأساسية ، التي تكشف عنها عقل هيرودوت ، ننتقل إلى تأمل غايته ومنهجه بعناية أكبر .

وستحدث أولاً ، حديثاً موجزاً عن مصادره . والمصدر الأول ، دون ريب ، هو تلك المعلومات التي جمعها من رحلاته في القارات الثلاث<sup>(٣٧)</sup> . وقد كان ناقداً محمصاً ، إلى الغاية التي يتيحها عصر كعصره . فلم تكن نتوقع منه مثلاً ، أن ينكر الكهانة ، وأن يبين أن اعتقاداً كهذا لا يمكن أن يتم إلا بشروط خاصة . ولم تكن النبوءات في نظره مقبولة ، بقيمتها الظاهرة ، فالإنسان يستطيع أن يتعرف إلى عدد منها ، وأن يختار من بينها ما شاء له الاختيار . والتكهن إذن ، كما هو الآن ، ليس إلا نوعاً من التفكير بصوت عال أو من تبادل الآراء . وكان هيرودوت في أغلب الأحيان يعبر عن شكه ، أو يحتاط لنفسه ببعض الملاحظات كقوله : « أنا أقص القصة كما رويت لي » ، وكان في بعض الأحيان ، يورد عدة روايات ، ويتركها للقارئ ليميز خبيثها من طيبها . وكان بارعاً في رواية القصص ، وقد قيل إنه كان يرتزق بهذه الوسيلة ، وإن كنا لا نجد ما يثبت ذلك . ولكننا بعد ، لا نعرف المورد الذي كان يأتيه منه الرزق . ولعله كان تاجراً ، ولا شك أن التجارة كانت تلذ له ، كما كانت

تلذ لأكثر اليونانيين<sup>(٢٨)</sup>. وكتابه يزخر بالحوادث والحكايات القصيرة ، التي يمكن أن تنحى منه جانباً ، كما أنه يغص بالاستطرادات الممتعة ، التي كان يجب إيرادها ، على طريقة المحدثين البارعين . ولا يستبعد أن يكون قد قلب بعض الوثائق ، ورأى بعض النقوش ولكنه اعتمد على السماع في المقام الأول ؛ وكان بارعاً في المقارنة بين الشهود وتمحيص أخبارهم . وهو يتيح لنا رؤية هؤلاء الشهود ، وسماع أقوالهم بعينها ، إلا أنه بعد ذلك كله ، يدلى بمخاطره وآرائه ، التي غالباً ما تكون رقيقة دمثة ، تنبع من عقل ذكي ، وتفويض من فكر صائب ، وتجعلنا أحياناً نتذكر مونتيني .

ومصنفه يعتبر ذخيرة من الأساطير والحرفات الشعبية ، اليونانية والشرقية . وهو يقارن ، في هذا الشأن ، بكتب الرحالة العظام ، أمثال ماركو بولو ( النصف الثاني من القرن الثالث عشر ) ، وابن بطوطة ( النصف الثاني من القرن الرابع عشر ) . كما أن مصيره لا يختلف عن مصيرهم . فقد كانت الحكايات التي قصوها ، من الغرابة بحيث أحجم كثير من الناس عن تصديقها ، يتسمون منهم ساخرين ، ولسان حالهم يقول : « كل ذلك زور » . والقراء السذج . يتقبلون عادة المعجزات والحرفات ، دون أن يساورهم نجاهها شيء من الشك أو الارتياب ، بينما لا يخفون شكهم في الحكايات الحقيقية . وسنورد بعض الأمثلة فيما بعد .

وقد كان هيرودوت من أعلام النثر اليوناني المرسل . وكان أول مؤلف حمل اليونانيين على أن يعتقدوا أن النثر قد يحوى من الجمال والإثارة ما يحويه الشعر . وقد لاحظ ذلك أيضاً ، رجل آخر من هاليكارناس ، هو ديونيسيوس ( النصف الثاني من القرن الأول ) .

وأسلوبه بسيط كل البساطة ، لا يقوم على شيء من الصنعة ، وحكاياته ترد بطريقة مباشرة . وهو يميل إلى الاستطراد ، ويأتي به عمداً ، كما كان يفعل هوميروس . وقد تأثر به ، كما فعل كل يوناني ، إلا أنه تأثر ، فضلاً عن ذلك ، بكتاب المأسى . وقد كان سمحاً مخلصاً ، معتدلاً حكيماً ، وكان في شدوده

وسداجته كالأطفال . وكانت التفاصيل القصصية تسهويه ، ولذا كان يمعن فيها في بعض استطراداته ، وخاصة في وصفه لجميع الأمم التي ضمها جيش كسركييس وأسطوله . فقد كان هؤلاء الرجال ، يمتشقون أسلحة مختلفة ، ويرتدون ملابس متباينة ، كل بحسب جنسه وتقاليده . وهذا الوصف يقع في ما لا يقل عن ثمانية وثلاثين فصلاً<sup>(٣٩)</sup>، وقد استهله بالفرس ، وانتهى به عند الملكة أرتيميزيا الأولى والسفن الكارية .

وكانت فلسفته في التاريخ ، لا تختلف عن فلسفة كبار الشعراء والكتاب المسرحيين في عصره . والفكرة الأساسية التي تقوم عليها ، هي « تغير الحظ » . وهي واضحة في عرض كتابه ، الذي يبتدئ ابتداءً مناسباً ، بتاريخ كروسوس ، وينتهي بتاريخ كسركييس . ونحن نشاهد في كل لحظة ، ذلك الانتقام الإلهي الذي لا يرحم ، والذي يطهر النفوس من كبريائها وصلفها . وفكرة العناية الإلهية ، ترد عنده أيضاً<sup>(٤٠)</sup>، كما ترد عند سوفوكليس ويوريديس<sup>(٤١)</sup> . وهكذا كان هيرودوت ، على الرغم من بساطته وطيبته ، جاداً كل الجد . وأود أن أكمل الصورة التي أعطيها عنه ، بمقارنة أثارت الدهشة في نفسى : « فقد لاقى هيرودوت نفس المصير الذي لاقاه موزار . حالت عذوبته وفكاهته وسهولته غير المتكلفة ، دون ظهور نغمة الحزن الممض والحسرة ، التي كانت تنبئ أحياناً بين سطور تاريخه »<sup>(٤٢)</sup> . ومقارنة كهذه ، بين شخصين يفترقان في الزمن والمكان والأخلاق ، كما هو الشأن في هيرودوت وموزار ، لا تخلو من المصادفة ، ولكنها على كل حال ، مرت بخاطري ، لأننى أحبهما معاً .

إن تاريخ الشرق الأدنى معقد ، حتى نحن الذين نملك الحرائط والجدول الموضحة والقواميس التي ترشدنا في كل خطوة نخطوها يصعب علينا ، في بعض الأحيان ، تفسير الوقائع المعقدة ، وتفهم ما وقع من أحداث . ولهذا لا نتظر من مؤرخ مبكر ، أن يجلو لنا أموراً معقدة كهذه ، بوضوح ودقة . وتاريخ هيرودوت ، يشتمل على ذخيرة طيبة من المعلومات المهمة ، ولكنه لم يكن ، ولا يمكن أن يكون ، مصنفاً كهذه المصنفات التي نقع عليها اليوم ،

والتي هي ثمرة قرون عديدة . والقسم الخاص بمصر ، من تاريخه ، مشوش مضطرب ، إلا أن قيمته تزداد ، عندما يتناول تاريخ الأسرة السادسة والعشرين ، ( الأسرة الصائية من سنة ٦٦٣ - ٥٢٥ ق.م ) التي يستهلها بسماتيك الأول ( ٦٦٣ - ٦٠٩ ق.م ) ، وكذلك عندما يتحدث عن الغزو الفارسي ، وقد ظلت مصر ولاية فارسية ، منذ سنة ٥٢٥ ق.م ، حتى عهد الإسكندر الأكبر ( ٣٣٢ ق.م ) . وكان من الطبيعي أن يزور هيرودوت مصر ، وقد كان بحسب مولده مواطناً فارسياً ، وأن تثير الأعاجيب الكثيرة في هذه البلاد اهتمامه . وقد أعجب بتلك المعابد الضخمة التي كانت تغطيها نقوش طويلة ، لم يتمكن من قراءتها ، وكان تحت رحمة التراجمة ، الذين كانوا بلورهم لا يستطيعون قراءتها أيضاً ، إلا أنهم كانوا مع ذلك ، على استعداد لتفسير ما غمض منها . ومهما يكن من أمر ، فقد كان وصفه لمصر ، بالغ الأهمية ، لأنه الوصف الوحيد ، الذي انتقل إلينا من شاهد يوناني ، أجنبي ذكي ، كانت نفسه تنطوي على عطف عظيم .

ووصفه لبابل يستحق مثل هذا النقد . ومعرفته لتاريخ بابل القديم ، لا تختلف عن معرفة أى بابلي مثقف عاش في ذلك الحين ، وكانت لديه معلومات ضئيلة عن تراث قومه ، إلا أنه لا يلم بتواريخ الأسر الحاكمة القديمة ، لما نأبنا به نحن اليوم .

والقصة التي يرويها هيرودوت عن بسماتيك<sup>(٤٣)</sup> ، نموذج من سرعة تصديقه ، وحرصه على التمهيص في الوقت ذاته . فقد زعم البعض أن الحضارة الفريجية<sup>(٤٤)</sup> ، أقدم عهداً من المصرية . وفي سبيل إظهار الحقيقة ، عمد بسماتيك إلى وضع بعض الأطفال ، حديثي الولادة ، في عهدة أحد الرعاة ، وطلب إليه أن ينشئهم مع قطيعه . وقد أمر بالعناية بتغذية هؤلاء الأطفال ، كما منع الناس من التحدث إليهم . وأخيراً تلفظ أحدهم بكلمة (becos) ، (وهي تعني «الحبزه» ، في اللغة الفريجية) ، فاستنتج بسماتيك أن الحضارة الفريجية أعرق ، وجمع هيرودوت روايات أخرى تتصل بهذه الحادثة من ممفيس وطيبة وعين شمس .

ونعى إليه عدد من القصص التي تدور حول الآلهة ، وعلق عليها بقوله<sup>(٤٥)</sup> :  
 « لا أريد أن أقصها ، ولن ألقى بالا إلى أسماء الآلهة ، لأنني أعتقد أن الناس  
 في علمهم بالآلهة سواء » .

والأساس الفلسفي والديني الذي كان يستند إليه عقل هيرودوت ،  
 مزيج من الأفكار الفيثاجورية والشرقية . وكان يعزو الاعتقاد في تناسخ  
 الأرواح<sup>(٤٦)</sup> إلى المصريين . وزاد على ذلك ، أن بعض اليونانيين ، الذين  
 في استطاعته أن يذكر أسماءهم ، شاركوا المصريين في هذا الاعتقاد . وهو أمر  
 محتمل ، ولكن الأغلب أن يكون هؤلاء اليونانيون استقصوا علمهم هذا من  
 الهند ، لا من مصر . وخلط في حديثه بين « ديمتريا » و « ديونيسوس » ،  
 حاكمي العالم السفلي ، وكذلك كان شأنه مع إيزيس وأوزيريس . إلا أن ذلك  
 كان أمراً طبيعياً .

ولم تكن لديه خبرة بالرياضيات ، كما أن معلوماته الفلكية كانت هزيلة .  
 ولاحظ معرفة المصريين الغزيرة بالتنجيم والكهانة<sup>(٤٧)</sup> ، كما أعجب بتقسيمهم  
 للسنة :  $( 12 \times 30 ) + 5 = 365$  يوماً . ينقسم كل منها إلى ٢٤ ساعة<sup>(٤٨)</sup> .  
 في حين أن أحد تقسيماته الخاصة للسنة ، كان يجعلها تقع في مايقرب من  
 ٣٧٥ يوماً<sup>(٤٩)</sup> . وهو يصف كسوفاً وقع قبل معركة سلاميس ، مع أنه لم يقع  
 كسوف ما في تلك السنة ( سنة ٤٨٠ ق.م )<sup>(٥٠)</sup> .

وبما أنه نهج نهجاً موسوعياً في تصنيف تاريخه ، فإن الملاحظات التي  
 يمكن أن نعلق بها على الأشياء التي ذكرها ، أو أهملها ، فيما يختص بمالك  
 الطبيعة الثلاث<sup>(٥١)</sup> ، لا تنتهي . ولهذا يجب أن نقتصر على بعض الأمثلة .

فقد لاحظ مثلاً طريقة البابليين في تأبير أشجار النخيل ، كما لاحظ  
 طريقهم في تلقيح أشجار التين . وعندما تقدم إلى وصفهما<sup>(٥٢)</sup> ، خلط بينهما .  
 وهذا يدل على أنه سمع بهاتين الطريقتين ، أو أنه شاهدهما ، دون أن يفهمهما  
 تمام الفهم . ثم خانته ذاكرته<sup>(٥٣)</sup> . وكان شرح ثيوفراستوس ( النصف الثاني  
 من القرن الرابع ق.م ) لهذا الموضوع ، أكثر وضوحاً . وهذه المسألة تعتبر من

أكثر المسائل إمتاعاً في تاريخ العلوم . وقد اختلطت فيها الخرافات الشعبية بالدين ، وهي تقوم شاهداً على مِرّة العقل الإنساني . ونكتفي هنا بالقول ، بأن النظرية الجنسية في إخصاب النباتات العليا ، لم تشرح بطريقة علمية ، إلا سنة ١٦٩٤ . ولم تحز القبول عند العامة ، إلا بعد مقاومة شديدة . أما تلقيح شجرة التين ، فلم يشرح إلا بعد ذلك بزمن<sup>(٥٤)</sup> .

وفي وصفه للأثهار السكيتية ، يتحدث<sup>(٥٥)</sup> عن « سمك الحفش<sup>(٥٦)</sup> العظيم الذي يخلو جسمه من السلسلة الفقرية » ، ويوجد عند مصب الهيبانوس ، ويحفظ بالتليح . ولم يذكر الكافيار الذي يستخرج منه ، مع أنه من الصعب أن نصدق أن السكيتيين ، أو سكان المستعمرات اليونانية ، لم يكتشفوا نوعاً من أنواعه . وقد عني هيرودوت بملاحظة النيل ، وأرض مصر ، وخرج من هذه الملاحظة بقولته المشهورة : مصر هبة النيل (doron tu potamu) . واستطاع أن يبرهن على هذا الرأي . ولم يستطع أن يعلل أسباب الفيضان السنوي تعليلاً دقيقاً . ولكنه لاحظ رواسب الطمي السنوية . وشاهد الأصداف البحرية والمتحجرة على التلال . واستنتج منها ومن طبقة الأملاح التي كانت تغطي وجه الأرض ، أن هذه الأجزاء كانت فيما مضى مغمورة بماء البحر<sup>(٥٧)</sup> . وقد كانت مصر السفلى ، في يوم من الأيام تحت الماء ، ولكن النهر أخذ يجرف معه بعض الرواسب ، هكذا نتأت الدلتا نحو البحر<sup>(٥٨)</sup> . ولاحظ تغير مواقع الماء واليابسة في تساليا أيضاً ، وعزا نشوء مضيق تحب (شمالى تساليا) إلى إحدى الهزات الأرضية .

« ويذهب أهل تساليا إلى أن " بوسيدون " هو الذى شق هذا المضيق ، حيث يجرى نهر بينيوس . وهذا أمر معقول ، لأن الذى يعتقد أن بوسيدون يملك الأرض دكاً ، وأن تلك الصدوع التي تحدثها الزلازل من صنعه لا بد أن يحكم ، لدى رؤيته ذلك المضيق ، بأنه من صنع بوسيدون ويتراعى لى أن هذه الجبال تمزقت بفعل زلزلة من الزلازل »<sup>(٥٩)</sup> .

وهذا تعليل جميل ، لأنه يكشف عن معرفة مبكرة بالجيولوجيا ، إلا أنها

مختلطة بالأساطير . وهو يعترف بأن شكل الأرض يتغير بفعل الزلازل ، وإن كان يرى أيضاً أن هذه الزلازل من صنع بوزيدون . وهذا أمر ربما تقل غرابته ، عندما يتأمل الإنسان الشنوذ الجيولوجى العجيب ، فى إقليم اليونان : الينابيع الحارة ، والمعدنية ، والشعاب الضيقة ، والأنهار الباطنية والزلازل - ولكن أكثر الناس يَمرون بغرائب الطبيعة مرور الكرام ، ولا يحاولون لها تعليلاً . وقد مزج هيرودوت بين التعليل العلمى ، والتعليل الميثولوجى ، وكثير من الناس فى أيامنا هذه يذهبون مذهبه ، إذ تكون تعليلاتهم العقلية ، دائماً مقيدة ومحدودة .

لم يكن هيرودوت عالماً جغرافياً بالمعنى الدقيق ، ولعل السبب الوحيد فى ذلك ، أن معلوماته الرياضية ، لم تكن من الغناء بحيث تيسر له تفهم الجغرافيا تفهماً صحيحاً . وكان عقله متجهاً وجهة أخرى ، ومع هذا أمعن فى تجواله فى القارات الثلاث ، ولهذا مكنته تجاربه ، بالإضافة إلى تجارب غيره ، من أن يكون فكرة واضحة ، إلى حد ما ، عن العالم المأهول (oicumené) آنذاك ، ولم يكن راعباً فى تعميم هذه المعلومات وتسويتها للناس ، وقد لاحظ على ذلك بقوله : « إننى أستغرق فى الضحك ، عندما أرى أن كثيراً من الناس ، رسموا خرائط عامة للأرض ، ولكن أحداً منهم ، لم يستطع حتى الآن ، أن يضع المسألة الوضع الصحيح ، لأنهم يرسمون المحيط ، وهو يجرى حول الأرض من جميع جهاتها ، تلك الأرض التى يرسمونها على هيئة دائرة ، وكأنها خططت بالفرجار . كما أنهم يرسمون آسيا مساوية فى حجمها لأوربا » (٦١) .

وهذا الكتاب ، الذى يعتبر أول مصنف فى التاريخ ، هو أيضاً أول مصنف فى الجغرافيا البشرية . لأنه يحوى أوصافاً جغرافية للأرض المعروفة عامة ، ولأجزاء كثيرة منها . وهذه الأوصاف تعنى دائماً بالجنس البشرى ، لأن هيرودوت ، كان يعنى به عناية تفوق عنايته بالمجردات . وكان يهتم بالجغرافيا البشرية ، أكثر مما يهتم بالجغرافيا الفلكية . كما كان يلتفت إلى التاريخ البشرى ، أكثر مما يلتفت إلى التاريخ الطبيعى . وبما أنه لم يكن فى حوزته

خرائط دقيقة ، فلا عجب إذا تكررت الأخطاء في وصفه . وما يدعو إلى الدهشة حقاً ، أن هذه الأخطاء لم تكن ، على كثرتها ، من الخطورة بمكان . وفي كثير من الأحيان ، كان يحس بحاجة إلى المعلومات ، ولهذا كان يخشى أن يورط نفسه ، وإليك مثلاً على ذلك ، قوله :

« لا أستطيع أن أتحدث بدقة ، عن المناطق التي تقع في أقصى غربي أوروبا ، فأنا لا أعتقد أن هنالك نهراً يدعوه الأجانب (إريدانوس) ، يصب في بحر الشمال ، وهو ، كما يقال ، المصدر الذي يأتي منه العنبر . كما أنني لا أعرف شيئاً عن جزر القصدير ، التي يجلب إلينا منها القصدير . وإن لفظ إريدانوس نفسه ، يدل على أنه ليس اسماً أجنبيّاً ، بل هو يوناني ، أبدعته محيلة أحد الشعراء . وعلى الرغم من كل ما بذلته من مثابرة ونشاط ، لم ألق إنساناً رآه ، أو أقر بأن هنالك بجزراً وراء أوروبا . وكل ما نعرفه من الأمر ، أن ما نستهلكه من العنبر والقصدير ، يرد إلينا من مناطق بعيدة جداً » (٦١).

وقد تردى في أخطاء فادحة عجيبة ، عندما تحدث عن مجرى الدانوب ومجرى النيل . وعندما رأى أن الدانوب يقطع أوروبا من الغرب إلى الشرق ، ظن أن النيل الأعلى يسير في هذا الاتجاه أيضاً . وبالإضافة إلى ذلك ، خلط بينه وبين نهر النيجر . ولعلنا نغتفر له هذه الزلة ، إذا تذكرنا أن هذا الخطأ ، ظهر على صور مختلفة ، حتى أواخر القرن الثامن عشر (٦٢) . ولعل قيمة الأاطلس ، وما تحتوي عليه من معلومات ، لا تظهره بجلاء في موضع خير من هذا . ففي وقتنا الحاضر ، يستطيع أى طفل ، بنظرة واحدة يلقيها على خريطة بسيطة متقنة لأفريقيا ، أن يتتبع مجارى الأنهار العظيمة — النيل والنيجر والكنغو — من منابعها حتى تصب في البحر ، كما يستطيع أن يدرك على الفور ، علاقاتها المتبادلة . فليس أمامه في ذلك أى شك أو التباس (٦٣) .

وقد كانت الإمبراطورية الفارسية تنقسم إلى عشرين مقاطعة أو ولاية . ووصف هيرودوت بتفصيل ، الطريق الملكي (السلطاني) في فارس ، الذي يصل بين سارديس وسوسة (٦٤) . وطوله يساوى ٤٥٠ فرسخاً ، أى ما يساوى

١٣٥٠٠ ستاديه (الفرسخ = ٣٠ ستاديه) ، أو مسيرة تسعين يوماً (بمعدل ١٥٠ ستاديه في اليوم الواحد)<sup>(٦٥)</sup> . وكانت هنالك مراحل للراحة . والمسافة بين إفسوس وسارديس ، تبلغ ٤٥٠ ستاديه . وهكذا تكون المسافة بين البحر الهليني والعاصمة ، ١٤٠٤٠ ستاديه . أى مسيرة ٩٣ يوماً . ووصف هيرودوت يحتوى على أخطاء كثيرة ، ولكننا إذا قبلناه على علته ، نستنتج من نصه وجود طريق ملكى ، يقطع الإمبراطورية ، وينقسم إلى مراحل معينة ، وأنهم أقاموا نظاماً خاصاً للبريد . والحقيقة أنه لولا قيام مثل هذه الخدمة ، التى كانت مقصورة على الأغراض الرسمية ، بالإضافة إلى أعمال التجسس ، لما أمكن وجود حكومة فى هذه الإمبراطورية الشاسعة الأطراف . والطريق التى وصفها هيرودوت ، كانت أكثر طولاً وأشد تعرجاً مما كان يمكن أن تكون عليه ، ومرد ذلك إلى اتباعها لبعض الطرق القديمة (الحيثية)<sup>(٦٦)</sup> .

وقد اعتمد هيرودت فى وصفه للهند ، أشد المقاطعات الفارسية بعداً ، على مصادر غير مباشرة . إذ أنه لم يتجاوز فيه حدود نهر الهندوس ، وكان ناقصاً إلى حد بعيد . ولكن على الرغم من ذلك ، لا يخلو من فائدة ، إذ كان أول وصف عرفته المصادر اليونانية<sup>(٦٧)</sup> . ولعل أهم ما فيه ذكره للقطن لأول مرة فى التاريخ<sup>(٦٨)</sup> . وقد قال فى وصفه : « تنبت بعض الأشجار البرية فى الهند ، نوعاً من الصوف ، الذى يفوق فى جماله وجودته صوف الغنم . وهذه الأشجار تزود الهنود بملابسهم » . وقال أيضاً : « كان الهنود الذين انخرطوا فى جيش كسر كسيس يرتدون نوعاً من الصوف النباتى » .

ولعل مفخرة هيرودوت الكبرى ، هى وصفه لشعوب الأمم المختلفة ، وطبائعهم وعاداتهم . وقد ننكر أنه كان أبا التاريخ ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر ، بحال من الأحوال ، أنه كان أبا علم خصائص الشعوب<sup>(٦٩)</sup> . ولصنفه قيمة إثنولوجية ، فى المقام الأول . لأننا إذا أعمنا النظر فى المصادر التى استقى منها معلوماته (الملاحظة المباشرة والرواية الشفوية) ، نجد أن مزلق الخطأ فيها ، فيما يتصل بهذا الموضوع ، أقل منها فيما يتصل بسرد الأحداث التاريخية القديمة ،

أو العلاقات الجغرافية المعقدة ( كمواضع الأنهار والجبال ) . وعندما يتحدث عن البرابرة ( الأجانب ) ، يلاحظ أنواع الطعام الذى يأكلون ، وزواجهم وعاداتهم الجنسية<sup>(٧٠)</sup> ، وطبيعة مساكنهم ولغتهم ودينهم ، وخير مثل على الوصف الأثنولوجى ، هو حديثه عن السكيتيين ، الذين كانوا يقطنون شمالي البحر الأسود . وهذا الوصف المسهب ، يعد وثيقة أصيلة فى تاريخ روسيا ، لا يضاهيه فى ذلك ، إلا الوصف الذى خلفه لنا تاكيتوس ( النصف الثانى من القرن الأول ) ، بعد ذلك بخمسة قرون ونصف ، فيما يختص بتاريخ ألمانيا .

ويستهل هيرودوت وصفه بلمحة عامة عن البلاد والمناخ . ثم ينتقل إلى الحديث عن آلهتهم ، ويذكر أسماءها باللغة السكيتية ( ونحن لا نكاد نعرفها إلا عن هذا الطريق )<sup>(٧١)</sup> ، ثم يصف الشعائر الدينية ، والأضاحى ، والتقاليد العسكرية ، وطرق الكهانة ، وعادات المطيبين ، وإعدام المجرمين ، وشعائر دفن الموتى . وقد راجع أوصاف هيرودوت هذه ، بعض علماء خصائص الشعوب . وعلماء الآثار ، ووافقوه على جميع ما جاء فيها . وبرهنت الحفريات الحديثة ، على صحة وصفه لشعائر دفن الملوك السكيتيين ، وما يودع معهم فى القبر . وقد كان السكيتيون ، يتعاطون الحشيش بكثرة ، كما يتعاطى غيرهم من الشعوب القنب . وكانوا يذرون بذور الحشيش على حجارة محماة ، ليستمتعوا بحمامات البخار المخدرة<sup>(٧٢)</sup> . وهذه أول إشارة إلى هذا النبات ، (*Cannabis sativa indica*) الذى طالما استعمله ، وأساء استعماله ، أبناء الشعوب المختلفة ، ( وخاصة فى الشرقين الأدنى والأوسط ) ، منذ أقدم الأزمنة ، حتى يومنا هذا . وتاريخ القنب ، يكون فصلا من أطول الفصول ، فى دراسة تاريخ ميل الإنسان إلى المواد المخدرة .

ولنورد بإيجاز ، بعض الأمثلة الأخرى : أدخل العالم السويسرى ، فرديناند كيلر ، فرعاً جديداً من فروع الآثار ، هو دراسة سكنى البحيرات<sup>(٧٣)</sup> . وقد وصف هيرودوت ، سكنى البحيرات ، كما تجلى فى بحيرة براسياد فى مقدونية ، ووصف طبائع سكان البحيرات وعاداتهم . وكتب معاصره أبقرات ،

الذى ينتمى إلى مدينة كوس<sup>(٧٤)</sup>، وصفاً موجزاً لسكان البحيرات فى كونخيس ،  
( فى الطرف الشرقى من البحر الأسود ) .

ويذكر هيرودوت الأقزام فى ليبيا<sup>(٧٥)</sup> ، ولم يكن هذا الوصف جديداً ،  
إلا أنه يمتاز عما سبقه بأنه أكثر شمولاً وأشد إقناعاً . وقد برهن المكتشفون  
المحدثون ، بدقة وإحاطة ، على وجود الأقزام ، وفعلوا ذلك عدة مرات ( دوشلو ،  
وشفينفورت ، وستانلى )<sup>(٧٦)</sup> .

وقد أشار إلى عهود الدم قال : « وهذه الشعوب — الليديون والميديون —  
تعقد عهوداً تقسم عليها ، كما يفعل اليونان . وبالإضافة إلى ذلك ، يجرحون  
أذرعهم ، ويلتق كل منهم دم صاحبه »<sup>(٧٧)</sup> . وكثيراً ما شاهد علماء الأجناس  
المحدثون ، هذه العادة<sup>(٧٨)</sup> .

وتحدث عن الوشم المقدس ، قال : « كان على الضفة ( بقرب مصب  
الفرع الكانونى للنيل ) ، معبد لهرقل ، وهو ما يزال قائماً حتى اليوم . وكان  
إذا بلحأ إليه أحد الخدم ، ووسم ببعض الإشارات المقدسة — دلالة على أنه وهب  
نفسه للإله — فإن هذا الشخص ، لا يمكن أن يناله أحد بسوء »<sup>(٧٩)</sup> . ويمكن  
أن نعترض على ذلك ، ونقول ، إنه يجب التمييز بين الوشم والوشم .

ووصف عبادة المصريين للحيوانات<sup>(٨٠)</sup> . والحكايات التى أوردتها ، ليست  
من نوع الأساطير ، إذ قد ثبتت صحتها ، عن طريق علم الآثار والدراسات  
الخاصة بالطوطمية ، وهى فرع من علم خصائص الشعوب ، يرجع تاريخه إلى  
الربع الأخير من القرن الماضى فقط<sup>(٨١)</sup> .

ولا حاجة بنا إلى الإسهاب فى إيراد مثل هذه الشواهد ، فالملاحظات  
الإثنولوجية ، أطرف ما فى مصنف هيرودوت ، وبلغت من طرافتها أنها لم  
تلاق ما تستحقه من التقدير حتى يومنا هذا . وقد تجاوزها أقدر الشراح  
فى القرن الماضى ، لأن علم خصائص الشعوب لم يكن قد عرف بعد ، أو أنه  
لم يكن قد بلغ درجة كافية من التنظيم ، وإن ما وجد منه لم يكن معروفاً  
لديهم فى ذلك الحين . وقد كانوا ، فى الأكثر ، من علماء الكلاسيكيات ،

أو من علماء الآثار ، أو من هؤلاء العلماء الذين وقفوا جهودهم على دراسة السياسة والدين في العالم القديم ، وهكذا لم يدركوا أهمية الحقائق الإثنولوجية ، عندما عبروا بها . والحقائق التي يصنفها علم الأجناس اليوم تحت عنوان : المذهب الروحي ، والمحرمات ( تابو ) ، والطوطمية ، و « سكنى البحيرات » ، وما إلى ذلك<sup>(٨٢)</sup> ، كانت تنبذ على أنها من الغرائب أو البدع .

وبهذا يكون هيرودوت قد أرسى قواعد هذا العلم ، الذي سرعان ما اندثر بعد وفاته . وهذا لا يعنى أن اليونانيين لم يكونوا يعنون بالإنسان ، إذ كانوا يبذلون أعظم العناية لتفهم لغز الحياة . إلا أنهم بتأثير سقراط وأفلاطون وجهاوا عنايتهم الفائقة إلى طبيعة الإنسان الداخلية ، وإلى مشكلاته الخلقية والسياسية ، وأهلوا دراسة طباعه وعاداته : كيف يعيش الناس ، وكيف يعالجون مشكلاتهم اليومية ؟ كيف يتغذون ؟ وما الملابس التي يخيطنونها ويرتدونها ؟ وأى نوع من البيوت يبتنون لسكناهم ؟ وما علاقاتهم الجنسية وروابطهم العائلية ؟ ولماذا يسلكون في حياتهم هذا المسلك الذي نراهم عليه ؟ وكيف يتقانون من طور الطفولة إلى طور المراهقة ، ومن العزوبة إلى الزواج ، ومن الشباب إلى الشيخوخة ؟ وكيف يعاملون المريض والمعتهو ؟ وكيف يتخلصون من جثث موتاهم ؟ . . . لقد حاول هيرودوت أن يجيب عن أسئلة كهذه ، وقلّ من غنى بها ممن جاءوا بعده .

ظهرت بعض العناية بدراسة خصائص الشعوب في القرن الثامن عشر ، ولكن قواعد هذا العلم لم توضع إلا في القرن الماضي ، وفي أوائل هذا القرن . ولقد استطاع علماء خصائص الشعوب المحدثون ، أن يبرهنوا على صحة كثير من تلك الحقائق التي رواها أبو التاريخ ، والتي لم يعرها أجدادنا أدنى التفات . وكانت لها قيمة كبيرة ، لأنها أول أمثلة من نوعها .

ولقد قال أحد كبار علماء خصائص الشعوب في عصرنا « إن هيرودوت يزداد كسباً يوماً بعد يوم »<sup>(٨٣)</sup> . وكثيراً ما لقب أبو التاريخ ، بأبي الأكاذيب ، إلا أن أكثر هذه الأكاذيب التي تنسب إليه ، لم تكن من بنات أفكاره ،

ولكنها ما تزال ثغرات ماثلة في معلوماتنا . وإن قامته لتزداد شموخاً ، كلما قلَّ جهلنا بعلم خصائص الشعوب .

### ثوكيديديس الأثيني

لم يجر على قلمنا ذكر إسبرطة ، لأن في استطاعتنا أن نؤرخ للعلوم اليونانية ، دون أن نذكرها . ولن تكون خسارتنا عظيمة حينئذ . ولكن من المستحسن أن نتحدث عنها بإيجاز . لا من أجلها هي ، ولكن لنتمكن من إدراك أهمية منافستها وعدوتها العظيمة أثينا .

كانت إسبرطة ( أو لقدمونيا ) ، التي تقع في لاكونيكا ، المركز الأول للإيلوبونيز . وقد أغار عليها الدوريون الذين أصبحوا فيما بعد الطبقة الحاكمة فيها ، وأزاحوا سكانها الأصليين عن مكان الصدارة ، وجعلوا أكثر أهلها عبيداً . وقد كانوا في زمن الغزو الفارسي ، أقوى فئة بين اليونانيين . ولكن النصر يعزى في الأكثر إلى جهود الأثينيين ، وأدى إلى ازدياد نمو أثينا . وقد ازدهرت الإمبراطورية الأثينية وارتفعت معنوياتها ، في فترة السلم التي أعقبت معركة سلاميس ( سنة ٤٨٠ ق.م ) ، وامتدت نحواً من نصف القرن . وأورى ذلك زناد الإسبرطيين تدريجياً ، فكان السبب الأول في نشوب الحرب الإيلوبونيزية ( سنة ٤٣١ - ٤٠٤ ق.م ) .

وربما كان من الأصح ، أن نعزو هذه الحرب إلى سبب أعمق ، وهو التباين التام بين الطرفين ، من حيث المزاج والمثل العليا ، وذلك يعنى أن هذه الحرب ، كانت صراعاً بين الأيونيين والدوريين ، أى بين الديمقراطية والأبجركية ( حكم القلة ) ، أو بين القوتين البحرية والبرية .

وقد حاول كل من الطرفين ، أن يدعم قوته ، وذلك بضم بعض جيرانه إليه كحلفاء . وهكذا انقسمت بلاد اليونان وأيونيا تدريجياً إلى فئتين من الأحلاف . وانقسم العالم بالتالى إلى قوتين متعاديتين ، كانت هوة الخلاف تزداد اتساعاً بينهما يوماً بعد يوم ، وكان لا مناص من أن يقع بينهما الاصطدام ،

إن عاجلاً ، أو آجلاً . وهكذا تنشب الحرب . وكانت معركة مدمرة ، شلت كلا من الطرفين المتخاصمين ، وأدت أخيراً إلى ضياع استقلال بلاد اليونان . ولا يتسع المجال للدخول في التفاصيل ، ولكننا نستطيع أن نوجز قصة هذه الحرب على الوجه التالي :

كان يبدو ، في بادئ الأمر ، أن أثينا تطبق يديها على جميع الأوراق الراجعة . فقد كانت أجزاء إمبراطوريتها ترتبط بأسطول عظيم . ولكنها فقدت المبادرة ، بسبب نفشى الطاعون ( سنة ٤٣٠ - ٤٢٩ ق.م ) ، الذى فتك بالأتينيين فتكاً ذريعاً ، وثبط عزائم من بقى منهم على قيد الحياة . وقد انتهت السنوات العشر الأولى من الحرب ( سنة ٤٣١ - ٤٢١ ق.م ) بصلح نيكياس<sup>(١٤)</sup> . وقد تم الاتفاق بين الطرفين ، على أن يستمر هذا الصلح خمسين سنة . ولكن الأيام برهنت على أنه لم يكن أكثر من هدنة مريبة لا تؤمن عواقبها . وانتهت الحملة الصقلية ، التى قام بها الأثينيون سنة ٤١٥ ق.م . ( كانت تضم ١٣٤ مركباً . تحمل ٤٠٠٠ من الجنود المدججين بالسلاح ) . بكارثة شاملة ، منى بها أسطول أثينا وجيشها ، وذلك فى معركة سرقسه سنة ٤١٣ ق.م . وأدت السنوات العشر الأخيرة من هذه الحرب ( ٤١٣ - ٤٠٤ ) إلى استسلام أثينا وإذلالها .

وهكذا اندحرت أثينا ، وانتصرت إسبرطة . وإن كانت فى نظر الخلود ، لم تنتصر ، فى حين أن أثينا كتب لها أن تظل خالدة . إذ أن فوز إسبرطة ، لم يحل دون تقدم أثينا العقلى ( كما سنرى فى الفصول التالية ) ، وقد ظلت أثينا ، مدرسة لليونان ولأوروبا ، وكل ما ينسب إلى اليونان من مجد ، مرده إلى أثينا لا إلى إسبرطة .

أضف إلى ذلك ، أن أهل إسبرطة لم يحتفظوا بسيادتهم المادية أمداً طويلاً ، إذ تغلب عليهم أهل طيبة فى معركة لوكترا سنة ٣٧١ ق.م ، وفى الجليل التالى ، اضطر اليونانيون المقسمون على أنفسهم ، أن يخضعوا لسيادة المقدونيين . إذ انتصر عليهم فيليب الثانى ، فى معركة شيرونيا سنة ٣٣٨ ق.م .





حتى سنة ٤٠٤ (أو الجزء الأكبر منها) ، في سكت هایل ، فغنى هذا أنه بدأ في كتابة تاريخه قبل النفي ، ثم آتمه بعده . والكتاب يبدأ على الوجه التالي (راجع الشكل رقم ٦٨) :

« توكيديديس الأثيني ، كتب تاريخ الحرب التي شبت بين البيلوپونيزيين والأثينيين ، وقد استهل عمله عند بداية الحرب ، لأنه اعتقد أنها ستكون أعظم وأهم من كل ما سبقها من حروب . وحمله على هذا الاعتقاد ، أن كلا من الطرفين أعد للحرب ما استطاع من قوة ، وأن الشعوب الهلينية جميعاً اشتركت في هذه الحرب ، فانحازت إلى هذا الطرف أو ذلك . وبعضها سارع إلى هذا الانحياز ، والبعض الآخر عقد العزم على ذلك ، وكانت هذه الحرب ، أعظم حركة أثرت في الهلنيين ، بل امتد أثرها إلى بعض الشعوب الأخرى . ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها أثرت في مجموعة كبيرة من الجنس البشرى » .

وقد أدرك المؤلف أهمية عمله هذا تمام الإدراك ، وتبين له وجه الحقيقة منذ البداية ، إذ أن الخصمين كانا يستعدان لخوض غمار هذه الحرب منذ أمد بعيد ، ولم تكن في حقيقتها حرباً أهلية تنشب داخل أمة من الأمم فحسب ، بل جرت إليها أمماً أخرى ( ولم ينتصر الإسبرطيون أخيراً إلا بمساعدة الفرس ) .

• • •

وفي نظر الفيلسوف ، كل حرب هي في حقيقتها حرب أهلية . وهذا الحكم يصح على الحرب البياوپونيزية بوجه خاص ، تلك الحرب التي قسمت الجنس إلى معسكرين . وقد نقح توكيديديس مصنفه بعد سنة ٤٠٤ ، وكتب له مقدمة جديدة ، جاء فيها :

« كتب تاريخ هذه الحوادث ، توكيديديس الأثيني نفسه ، متبعماً تسلسل الوقائع ، في الصيف والشتاء ، حتى ذلك الوقت ، الذي تمكن فيه الإسبرطيون وحلفاؤهم ، من أن يضعوا حداً لحكم أثينا ، واستولوا على أسوار بيرايوس . وبهذا الحادث ، تكون الحرب قد استغرقت ، في مجموعها ، سبعاً وعشرين

سنة . وإذا كان هنالك من لا يرى من الصواب إضافة فترة الهدنة ، إلى مدة الحرب ، فإن حكمه خاطئ . ولا بد له أن ينظر إلى الأمور ، على ضوء الحقائق كما وقعت . حتى يتبين له أن تلك الهدنة لم تكن في الحقيقة فترة سلم ، توقف فيها كل من الطرفين عن استعادة أو تسليم كل ما اتفق عليه . . . وهكذا إذا جمعنا مدة السنوات العشر الأولى ، التي استمرت فيها الحرب ، إلى مدة الهدنة المزعومة التي تلتها ، وحسبنا ذلك بحساب فصول السنة ، وجدنا أن عدد السنوات ، هو العدد الذي ذكرنا مضافاً إليه بضعة أيام . أما إذا نظرنا إلى الأمر بعين أولئك الذين تحققوا من وقوع المعجزات ، فإنه سيجد أن هذه الحقيقة بالذات كانت صحيحة . لأنني أذكر أنه كان يقال دائماً ، منذ بداية الحرب حتى نهايتها ، إن هذه الحرب ستستمر تسع سنوات مضاعفة ثلاث مرات . ولقد عاصرت هذه الحرب ، وكنت في سن تسمح لي باستنتاج الأحكام ، كما أنني تتبعت حوادثها بدقة ، لكي أتمكن من جمع المعلومات الصحيحة » (٨٧) .

ولقد ظل مصنفه ناقصاً . لأنه على الرغم من هذا القول الذي اقتبسناه آنفاً ، لم يتعد ثوكيديديس في كتابته سنة ٤١١ . أما تقسيم المصنف إلى ثمانية كتب ، فقد قام به على الأرجح علماء الإسكندرية . وأما نسبة الجزء الثامن إليه ، فهي موضع نظر . فقد نسب ، في صورته التي وصلت إلينا ، إلى ابنة ثوكيديديس ، وإلى كسينوفون ، وكذلك إلى ثيوبومبوس الذي ينتمي إلى بلدة الحيسوس . ومن الثابت أن الاثنين الأخيرين ، كتب « الهلينيكا » ، لتكملة كتاب ثوكيديديس . وكتاب ثيوبومبوس المفقود ، يكمل التاريخ من سنة ٤١١ حتى سنة ٣٩٤ . أما كتاب كسينوفون ، الذي بين أيدينا ، فإنه يتناول فترة أطول ، أي من ٤١١ حتى معركة منتينيا الثانية (Mantineia) ، سنة ٣٦٢ ق.م. ويعكس الكتاب الثامن ، جميع خصائص ثوكيديديس في التأليف ، إلا أنه يخلو من الخطب .

وليست الفصول الثلاثة والعشرون الأولى ، من الكتاب الأول ، سوى مقدمة

تدور حول علم الآثار ، وتمر بالحوادث التي جرت من سنة ٤٧٩ إلى سنة ٤٤٠ مراً سريعاً . وبهذا يكون قد وصل تاريخه بتاريخ هيرودوت ، وشرح مقدمات الحرب الجديدة . ووقف بقية الكتاب على الحرب نفسها ، حيث وصف أحداثها باعتدال وتجرد ، وأتى بها تبعاً لتسلسلها التاريخي . وحدد السنة الأولى من الحرب ( سنة ٤٣١ ق.م ) ، بذكر أسماء حكام أثينا وإسبرطة ، لكنه بعد ذلك كان يذكر السنوات بترتيبها ، أي السنة الأولى ، والسنة الثانية . . وهكذا ، ولم يكن يذكر الأشهر الأثينية . وكانت التقاويم المختلفة الشائعة في عصره ، مصدر فوضى واضطراب ، ولهذا لم يعرّها أدنى اهتمام . وكان يميز في كل سنة ، بين الفصل المعتدل Theros ، والفصل الرديء (cheimon) . وعندما يحتاج إلى مزيد من الدقة ، كان يشير إلى الحوادث الزراعية ، كقدوم الربيع ، واستواء الحنطة على سوقها ، وتذريتها في الهواء ، وجنى الكروم ، والأيام الجميلة الأخيرة . . وهكذا وضع وصفه للحرب ، في هذا الإطار التاريخي المحكم . وكثيراً ما كان يضطر إلى الانتقال المفاجئ من أحد أجزاء بلاد اليونان ، إلى جزء آخر ، وهذا مما يضايق القارئ . إلا أننا لا نملك إلا أن نعترف له بسلامة المنهج ، إذ أنه كان يربط بين البيئة الجغرافية والحوادث التاريخية . وهذا خير ما يفعله المؤرخ العلمي ، حتى لا يضل سبيله وحتى يأمن الزلل والعتار . وأنا أستعمل كلمة « العلمي » عن قصد ، لأن توكيديديس كان مؤرخاً علمياً بالمعنى الدقيق للكلمة . وهو أول من يستحق هذا اللقب في العالم . ويعتبر كتابه أول رائعة أدبية في النثر الأتيكي ( أما هيرودوت فقد كتب مصنفه باللهجة الأيونية ) . بل هو فضلا عن ذلك ، أول محاولة لوصف الحرب ، أسبابها وتقلباتها ، بطريقة رجل العلم ، ذي الدربة والمران ، أو قل بطريقة الطبيب ، الذي يصف تقلبات المرض . وقد تجنب الخرافات والالتباسات ، وقال في ذلك مفتخراً :

« قد يكون خلو كتابي من بعض الخرافات ، سبباً في جعله منفراً للأذن . ولكن لعل هنالك من يرغب في أن يلتقط فكرة واضحة عن الحوادث التي حدثت ،

أو التي يحتمل أن تحدث في يوم من الأيام ، بنفس الطريقة ، أو بطريقة مشابهة لها . وحسبي أن يجد مثل هؤلاء الناس ، كتابي هذا مفيداً لهم «<sup>(٨٨)</sup>.

والكلمات الأخيرة التي تنهى بها الترجمة الإنكليزية يقابلها في اليونانية (Ctema es aiei) وكثيراً ما أشير إليها خطأ ، كأن كلمة ctema هي mnema (أى تذكاري) ، وكأنهم ظنوا أن ثوكيديديس ، قد قال متعجباً : كما فعل هوراس : (Exegi monumentum aere perennius) لكن الأمر لم يكن كذلك . فإن ثوكيديديس لم يكن يفكر في مجده الشخصي ، بل كان يفكر في قيمة كتابه ، شأنه في ذلك شأن كل عالم مخلص . وقد بذل جهوداً مضنية ، في سبيل الحصول على نتائج لها قيمة خالدة .

أما المصادر التي اعتمد عليها ، فهي تجربته الخاصة ، ثم معلوماته التي استمدها من بعض الرواة . وكان في بعض الحالات ، يعتمد على وثائق خاصة ، يدججها في روايته ، فمعاهدة نيكياس ، مقتبسة بحذافيرها<sup>(٨٩)</sup> ، وكذلك نصوص الحلف الذي كان بين الأثينيين والأرجيفيين والمنتينيين والإيليين . وقد عثرت الجمعية الأثرية في أثينا على جزء من هذه المعاهدة ، سنة ١٨٧٧ ، على لوحة من الرخام قرب الأكروبول . ونص هذه النقوش يتفق والنص الذي أورده ثوكيديديس ، ويعد هذا دعماً عظيماً له . وقد كان ثوكيديديس لا ينتمي إلى حزب ما ، على الرغم من إخلاصه العظيم لبركليس . أو لنقل إنه كان معتدلاً في تحيزه ، وإن كان دائماً مستعداً لأن يستمع إلى وجهات نظر الأطراف الأخرى ، وأن يتفهمها ويشرحها بأمانة وعطف . فقد دربت تعاليم السوفسطائيين الحرة الأثينيين على أن ينظروا إلى الموضوع من وجهيه المتقابلين ، وأن ينظروا إلى الشخصية ، من نواحيها المختلفة . ولا يعنى هذا أن جميع الأثينيين أفادوا من هذا التدريب . إلا أن عقلية ثوكيديديس ، كانت على أتم الاستعداد للانتفاع به .

وقد كانت غايته الأولى دائماً ، أن يكون صادقاً ، قدر الإمكان ، مهما كانت الظروف . وكان يستشعر أحاسيس العالم الذي لا بد له أن يصور

التجارب السيئة . والفشل مؤثر حقاً<sup>(٩٠)</sup> ، إلا أن هنالك لذة في وصفه بصدق . وقد رسم صوراً دقيقة للزعماء والقادة . ووصفه لبركليس خير مصدر يعتمد عليه لدراسة شخصيته وسياسته ، وخاصة في السنوات الأخيرة ( من سنة ٤٣٣ - ٤٢٩ ق.م ) . وهو يصور لنا رجلاً كان في استطاعته أن يعمل المستحيل ، إذ أنه كان قادراً على أن يكبح جماح الشعب ، دون أن يجد من حرّيته<sup>(٩١)</sup> ، أى إنه كان يحفره على قبول النظام المفروض ، وكأنا اختاره بنفسه . وقد كان من دواعي سرور ثوكيدديدس ، أن يصف عبقرية بركليس السياسية ، إذ كان معجباً به إلى حد بعيد ، إلا أنه استطاع أيضاً أن يكون منصفاً في موقفه من بعض الرجال الذين كان لا يميل إليهم . وبهذه الروح ، وصف قسوة كليون وأمانة نيكياس التي يكتنفها الجبن وتختلط بها الأوهام ، والتهور الرائع الذي أبداه ايكيبياديس . ولم يكن رأيه في الرجال ، متوقفاً على نجاحهم أو عدمه ، فقد يخطئ الحظ الرجل الطيب ، ولكن شخصيته تم عن جوهره .

ويظهر حياده وموضوعيته وأمانته ، على أحسن صورة ، عندما يتناول المسألة الأساسية ، وهي خصائص الديمقراطية الأثينية ، مقارنة بالحكم الاستبدادي في إسبرطة وقد دافع عنها بركليس ، في خطابه الجنائزي<sup>(٩٢)</sup> وهو يعد من أنبل الأحاديث السياسية . وذكرى خالدة لا تفنى ، لا لبركليس الذي ألقاه فحسب ، بل أيضاً لهؤلاء الأثينيين الذين استمعوا إليه ، ولأمهم مدينة أثينا . كم كانوا عظماء ، هؤلاء الرجال الذين استحقوا أن تتلى على مسامعهم مثل هذه الرسالة الكريمة . وهي طويلة إلى حد يحول دون اقتباسها كاملة ، وليس في استطاعتي إلا أن أقدم نماذج منها . قال :

« إننا نحب الجمال ولكن دون إسراف ، ونحب الحكمة ولكن دون ضعف . أما الثروة فإننا نعتد بها لا لتكون موضع تفاخر ، ولكن لتعيننا على تحقيق أعمالنا . ونحن لا نعيب الرجل الذي يعترف بفقره ، ولكننا نعتبر العيب كل العيب ألا يسعى الرجل إلى اجتنابه . وستجدون في بعض رجالنا اهتماماً بالشئون الخاصة ، وبالشئون العامة في آن واحد . ولن تفتقدوا في البعض

الآخر ، وخاصة هؤلاء الذين يعنون بالعمل ، نفاذ البصيرة في الشؤون السياسية .  
لأننا لا نعتبر الرجل الذي لا يسهم بنصيب في الشؤون العامة ، رجلاً أثنائياً يعنى  
بشؤنه الخاصة فحسب ، بل رجلاً لا يصلح لشيء من الأشياء» (٩٣).

### وكلماته الأخيرة :

« لقد تحدثت إليكم الآن ، طبقاً للقانون ، بتلك الكلمات التي وجدتها  
صالحة للمناسبة . أما هؤلاء الذين جئنا لنواربهم التراب ، فقد نالوا من تقديرنا  
ما يستحقون . وزيادة على ذلك ، ستعول الدولة أطفالهم من الآن فصاعداً ،  
حتى يبلغوا طور الرجولة . وبهذا نكون قد توجنا الموقر وورثهم بتاج ذى قيمة  
حقيقية ، مكافأة لهم على ما قدمت أيديهم في هذا النضال . إذ أنه حيث تكون  
الجوائز التي تقدم مكافأة للفضيلة كبيرة ، نجد المواطنين الصالحين . والآن بعد  
أن ذرفتم على الموقر ما هم أهل له من دموع ، وبكى كل منكم موتاه ، لكم أن  
تصرفوا» (٩٤).

والأمر يكون لا يستطيعون أن يقرأوا هذه الكلمات المشرقة ، دون أن يتذكروا  
خطاب لنكولن في جتسبرغ . وإنه لما يشرف هذين الزعيمين - على بعد  
ما بينهما في الزمان والمكان - أن خطابيهما الجنائزيين ، متشابهان كل التشابه ،  
من حيث النبيل والرصانة .

أما الرأي الآخر في الموضوع ، فقد عرضه توكيديديس على لسان « كليون بن  
كليتيوتوس الذي كان أول من وفق إلى إقناعهم بوجوب إفتاء الميثيلينيين ، ولم يكن  
من أشد المواطنين قسوة فحسب ، بل كان في ذلك الوقت أيضاً أبعدهم تأثيراً  
على الشعب» (٩٥).

### قال كليون :

« لقد أدركت في مناسبات كثيرة مرت بي أن الديمقراطية لا تصلح  
لحكم الشعوب الأخرى» (٩٦) ومضى كليون في حديثه مبيناً أن الديمقراطية والسيادة  
الإمبراطورية لا يتفقان .

وهكذا كان الأثينيون ، حوالى نهاية القرن الخامس ، يمرون بالأزمة نفسها التى يمر بها البريطانيون والفرنسيون والهولنديون والأمريكيون اليوم .  
ومن المؤلم حقاً ، أن نقرأ بركليس وكليون اليوم ، فى هذا الوقت الذى تمر فيه الديمقراطية بتجربة جديدة ، أعظم من كل تجربة سبق لها أن عايتها .  
وعلينا أن نتأمل جيداً كلمات بركليس الخالدة ، وأن نعبر تحذيرات كليون أيضاً بعض الالتفات .

وقد ساعد ثوكيديديس معاصريه ، وما يزال يساعدا نحن اليوم ، على تفهم الفروق الأساسية بين الرجال . وبعض هذه الفروق فطرى ، وبعضها الآخر نتيجة للظروف ، وإن كان راسخاً فى أعماقهم . وكان عمله الخاص ، أن يقارن بين الخصمين العنيدين ، أثينا وإسبرطة . فقد وُصف الأثينيون ( فى الخطاب الجنائزى مثلا ) ، بالرغبة فى العلم والتشوف إليه ، واتساع الأفق وحسن الضيافة ، والكياسة والذوق السليم والكرم ، والقلق . بينما يتصف الإسبرطيون ، بالضعة والحمية والأناية والتوانى والهدوء والرجعية والحذر والغيرة والإصرار والصبر . وإنه لمن المزعج ، أن يكون خصمك من هذا النوع من البشر ، ( الذين قد يكونون رجالا فضلاء ، ولكن بطريقتهم الخاصة ) . وهذان النموذجان البشريان ما يزالان موجودين بين ظهرانينا حتى اليوم . والحرب بين أثينا وإسبرطة لم تنته بعد ، وقد لا تنتهى أبداً . وهذا الوصف العلمى الذى قدمه لنا ثوكيديديس ، كان أكثر تمثيلا وصدقاً مما لو حاول أن يجعله أشد تأثيراً ، فيصبح بذلك كهذكرات المحامين أقل موضوعية ، وأقل تجرداً . وليس هنالك ، على تراخى الزمن ، ما يوازى الحقيقة ، من حيث تأثيرها .

وقد يأسف الإنسان حقاً ، لأن ثوكيديديس كان حريصاً كل الحرص على التقيد بمخطته ، ولذا نحى جانباً كل ما لا يدخل ضمن نطاق غرضه . فلم يصف لنا المجتمع فى ذلك الوقت ، كما لم يصف لنا تلك الآثار التى لا تبارى ، مما خلفه لنا أهل الفن والمفكرون من اليونانيين . لقد كان هذا العصر ، من العصور الذهبية ، وكم يكون قيماً وصف أحد المعاصرين له ، وخاصة إذا كان

هذا المعاصر على مثل ذكاء ثوكيديديس وحساسيته . ومهما يكن من أمر ، فلاشك أنه كان من رجال العلم ( ولا أستطيع إلا أن أردد ذلك دائماً ) ، إذ أنه أدرك أن البحث العلمي ، لا بد أن يقتصر على موضوع ضيق النطاق واضح المعالم . ولم يقدم لنا ثوكيديديس صورة عن عصر أثينا الذهبي ، وبدلاً من ذلك ، استطاع أن يقدم لنا وصفاً أميناً دقيقاً ، ما أمكنه ذلك ، لمعركة الحياة والموت ، التي خاضتها أثينا ضد خصم حقود لا تهدأ تأثيرته وكانت هذه غايته ، ولذا يجب ألا يصرفه عنها أمر من الأمور .

ولقد قيل إن أسلوب ثوكيديديس تغير ، أو ان نظرتة اختلفت خلال الثلاثين سنة التي قضاها في التأليف . وحاول علماء اللغة أن يثبتوا ذلك بواسطة النقد الداخلي . ولكن إذا عرف الإنسان أن ثوكيديديس ، كان ينقح كتابه دائماً ، وأنه من المحتمل أن يكون جزء من الكتاب الأول قد روجع في الوقت الذي روجع فيه جزء من الكتاب السابع ، فإن مثل هذا النقد لا يركن إليه . وعلى الرغم من ذلك كله لا بد لنا أن نتقبل هذا الرأي بوجه عام . فإن ثوكيديديس كان ، لاشك ، ناضجاً عندما بدأ في تأليف الكتاب ، إلا أن خبرته أخذت في الازدياد ، ولا بد أن يكون لإخفاق صلح نيكياس والحملة الصقلية أثر في تبدل نظرتة . وليس من الطبيعي ، ألا تتغير شخصيته بعد هذه الوقائع الفظيعة . وطراً عليه ، ما يطرأ عادة على كل عالم يشغل بمشروع طويل الأمد . فهو لا يستطيع أن يدفع عن نفسه عوادي التغير ، كلما نما عمله بمرور الأيام .

ولنعد ثانية إلى الفصول الأولى من كتاب ثوكيديديس ، وهي التي تضم المقدمة الأثرية . ومما هو جدير بالتنويه ، أنه رأى ضرورة ملححة لكتابة مثل هذه المقلعة . والسبب في ذلك أن ثوكيديديس كان عصرياً (شأنه في ذلك شأن أبقراط الكوسى كما سنرى فيما بعد) . وكان شعوره بعصريته لا يقل عن شعورنا نحن بذلك . كما أنه كان يحس بأثر الماضي الطويل ، الذي أدى إلى خلق الحالة الحاضرة ، ولهذا كان لا بد له أن يلخص تجارب الماضي . ومما يثير الدهشة في نفوسنا ،

أنه استطاع أن يضطلع بهذا العمل (مع تقدير الوسائل المتاحة له) ، كما نضطلع به اليوم . مثال ذلك أنه افترض أن وصف هوميروس للحرب الطروادية لابد أن يكون مبنياً على بعض اللقائى ، مهما أسرف خياله الشعري فى الزخرفة والتنميق . وعندما تحدث عن الجزر الإيجية قال :

« وسكان الجزر أشد تعلقاً بالقرصنة . ومنهم الكاريون والفينيقيون . ويظهر أن الكاريين كانوا يعمرون أكثر الجزر ، وهذا يتضح لنا من الحقيقة التالية : عندما طهر الأثينيون فى هذه الحرب جزيرة ديلوس ، ونقلت قبور جميع من ماتوا فى الجزيرة ، تبين أن أكثر من نصف الموتى كانوا من الكاريين . وقد استنتج ذلك من نوع الأسلحة التى دفنت معهم ، ومن طريقة الدفن ، التى ما تزال متبعة عندهم حتى الآن »<sup>(٩٧)</sup> .

وثوكيديديس هو الوحيد بين الكتاب القدامى ، الذى اعتمد على الشواهد الأثرية . لتبيان أصول اليونانيين . وبممكننا أن ندعوه « أبا علم الآثار » ، كما دعونا هيرودوت « أبا علم خصائص الشعوب » .

والمقدمة أيضاً تلتى ضوءاً على فلسفته التاريخية ، لأن وصفه يكشف عن فكرة تطورية ، على عكس الفكرة الرجعية التى عبر عنها هزيود ، التى كانت سائدة حتى القرن السابع عشر . وروايته<sup>(٩٨)</sup> التى أوردناها سابقاً ، تم عن إمكانية التكرار فى الشئون الإنسانية . ولكنه لم يتوسع فى شرح هذه الفكرة ، ولهذا ليس من حقنا أن نقارنها بفكرة أفلاطون عن تكرار الدورات أو العود المستمر . وربما عنى بذلك ، ببساطة ، ما يعنيه رجل العلم ، أى إذا تكررت الظروف المتشابهة فالنتائج قد تكون واحدة . ومن الظروف التى يترتب على المؤرخ أن يحسب حسابها الشهوات الإنسانية ، وهذه لا تتغير تغيراً كبيراً ، باختلاف الزمان والمكان . وهكذا قد تساعد دراسة الماضى المؤرخين على أن يتنبأوا بنتائج الصراع الذى يحدث بين بنى الإنسان ، شأنها فى ذلك شأن التقارير الإكلينيكية ، التى تساعد الأطباء على التنبؤ بالتطورات المتوقعة التى قد تطرأ على الأمراض .

وقد طبق ثوكيديديس نزعته لليادبة الموضوعية على نفسه أيضاً . فهو لا يكاد يذكر إدانته ونفيه ، ولا يحاول أن يعتذر . فهل نعزو ذلك إلى شعوره بالازدراء ، أو إلى ضميره النقي ونفسه المتعالية ؟ أو إلى الموضوعية العلمية ؟ الأغلب أن ذلك كان نتيجة لهذه العوامل الثلاثة مجتمعة ، وخاصة العامل الأخير .

ولكن من أين توافرت هذه النظرة العلمية لثوكيديديس ؟ . لاشك أن صفات الموضوعية والتجرد ، التي ساعدت على تكوين هذه النظرة ، كانت فطرية لديه . قد يكون هنالك بعض العوامل الخارجية التي تشجع على ظهور مثل هذه النزعة ، أو تعترض سبيلها . وساعدت ثقافته على توكيد مثل هذه الصفات . فقد جلس إلى أنتيفون الرمنوسى ، وغيره من السوفسطائيين . وإذا كانت السوفسطائية أصبحت مقبولة عندنا ، حتى إننا لا نستطيع أن نذكر ما كان لها من قيمة في القرن الخامس . فعلياً أن نتذكر ، مبدئياً ، أن أكثر الأثينيين ، كانوا بالضرورة يعرفون معنى الحقيقة الجدلية . وكان لابد لأعضاء المحاكم الشعبية أن يقدروا القيم النسبية لمختلف المرافعات التي تلقى على مسامعهم ، فكيف يتيسر لهم ذلك ؟ كيف يتيسر لهم أن يفاضلوا بين خطيبين ، يدافع كل منهما عن وجهة نظره الخاصة في إحدى الخصومات السياسية ؟ ومن النادر أن يكون أحد الحزبين نقيماً نقاء لا تشوبه شائبة ، وأن يكون الثاني على العكس من ذلك . فليست الأمور على مثل هذه البساطة . وهذا لا يمنع أن ينحاز أعضاء الحزب الواحد إلى حزبهم انحيازاً أعمى . وقد كان السوفسطائيون - وعلى الأقل النخبة الكريمة منهم - في ذلك الحين ، يعلمون الشبان أن يتجنبوا الأهواء الحزبية والضغائن ، وأن يزدروا الأكاذيب والحرافات . وكان في ذلك خير إعداد للتفكير المنطقي العلمي . وهؤلاء الرجال الذين كانوا يقولون إن الحق نسبي . لم يكونوا ساخرين ولا متشككين . وبفضل خبرتهم السياسية ، كانوا يدركون تمام الإدراك تلك المشكلات التي كانت تنتج عن الهوى وضيق الأفق . وقد تيسر معرفة الحق في الخصومات العلمية المحض ، أما في الشؤون السياسية . فإن أول شرط لكشف الحقيقة ، هو التمسك بموضوعية الشيء والتسامح واللين مع

الحصم . وكان نوكيديديس على أتم الاستعداد لتفهم هذه التعاليم ، بفضل عبقريته . وقد بلغ الحد المستطاع من اتساع الأفق . والحرص على الناحية الموضوعية . وممكنه حبه للحق من أن يرى الوقائع ، وأن يسجلها بإخلاص ، وأن يصنفها ، ( كما يصنف العالم ملاحظاته ، ويختزلها في نظام ) وكان قديراً على أن يرى الأشياء كما هي Sub specie aeternitatis ولم يعن ، بوجه عام ، بالناحية الخلقية للحوادث ، بل يكتفي بوصفها . وصف الفساد الذي تمخض عنه الطاعون ، الذي حدث نتيجة للاضطرابات الأخرى التي رافقت صراعاً لم تكن له نهاية . وهو موضوع يعرفه جيداً أولئك الذين يدرسون الحروب .

وكان أسلوبه ، كعقله ، أميناً وصارماً ، يكتب بحماسة وإيجاز ودقة ووضوح وحيوية . أورد التفاصيل بالدقة التي أمكنه الحصول عليها . وكان الوصف العام ، على حظ كبير من الاتزان . ولم يتردد ماكولي ، الذي كان من أعظم مؤرخي الإنجليز ، في أن يقول : « ليس هناك أثر نثرى - حتى كتاب دى كورونا نفسه<sup>(٩٩)</sup> - يبلغ في تقديري كتاب نوكيديديس السابع ، إنه الكتاب الذي لا يعلى عليه Ne plus ultra ، في الفن البشري » . ( الكتاب السابع يتناول الحملة الصقلية المشثومة ، التي كانت السبب الأول للهزيمة الفادحة التي منيت بها أثينا ) . وماذا يستطيع المرء أن يقول أكثر من ذلك ؟ ومن يستطيع أن يقول مثل هذا القول ، وله أعظم من هذه السلطة ؟

وقد هاجم جميع النقاد ، مكررين ومسهبين ، إحدى خصائص أسلوب نوكيديديس في الكتابة . ألا وهي عادته في تضمين كتابته الأقوال الأصلية ( وهي خاصة يشاركه فيها بعض المؤرخين القدماء ) . فلنستمع إليه إذن :

« أما فيما يختص بتلك الخطب التي ألقاها بعض الرجال ، عندما أوشكت نيران الحرب أن تشتعل ، أو أثناء الحرب ، فقد كان من الصعب استعادة ألفاظها بدقة . والأمر سواء ، بالنسبة إلى الخطب التي سمعها بنفسى ، أو تلك التي نقلها لى الرواة من مختلف المصادر . ولهذا فإننى أقدم هذه الخطب ، باللغة التي يلوح لى أن هؤلاء الخطباء عبروا بها ، فيما يتعلق بهذه الموضوعات ،

قيد البحث ، وبالعواطف التي تناسب المقام . ومع هذا حاولت أن أتقيد بالمعنى العام ، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً» (١٠٠).

أليس ذلك من الواضح بمكان ؟ فعندما يستقر في الذهن ، أن هذه الخطب لن تثبت حرفياً ، فليس هنالك كبير فرق بين كتابتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، بإثبات علامات الاقتباس أو بالاستغناء عنها ، وكتابة الخطب ، على هذه الصورة ، كانت طريقة شائعة لا ينخدع بها أحد . وكانت طريقة ضرورية ، أو لها ما يبررها على الأقل . لأن القدامى لم يكونوا يملكون الوسائل التي تمكنهم من استيعاب الخطب نفسها ، اللهم إلا إذا شهدوا الحفل بأنفسهم ، وكانت لهم ذاكرة قوية . وليس لهذه الطريقة ما يبررها اليوم ، لأنه من اليسير الحصول على النصوص الحرفية للخطب (١٠١) .

وهنالك سؤال أخير ، قد يجول في خاطر القارئ المتأمل ، وهو : كيف استطاع أثيني وطني أن يصف هذه الأحداث الفاجعة ، التي أدت إلى هزيمة بلاده ، بمثل هذا الحياد ؟ لقد سبق أن أجبنا على هذا السؤال ، أو عن جزء منه . فلاشك أن ثوكيديديس كان وطنياً ، شديد الحب للديموقراطية أثينا ، إلا أنه كان من ناحية رجل علم ، يضع إخلاصه للحقيقة فوق كل إخلاص . ومن ناحية أخرى ، كان إيمانه بالديموقراطية عميقاً ، حتى إنه كان لا يعترف بأن هزيمة أثينا كانت أبدية . فقد بقيت أثينا أو كان من الممكن أن تبقى — كما كانت سابقاً ، مدرسة اليونان (tês Hellados paideusis) (١٠٢) وقد بين بيركليس في خطبة الجنائز ، أن الثمرة الأولى للديموقراطية ، هي التثقيف ، لا مجرد النجاح . وعلى الرغم من تلك التغيرات العظيمة ، تابعت أثينا حمل رسالتها في تثقيف اليونانيين ، والعالم الغربي عامة . وبهذا برهنت برهنة تامة على ما كان يؤمن به بركليس وثوكيديديس .

طاعون أثينا (سنة ٤٣٠ - ٤٢٩ ق.م) :

بعد نشوب الحرب بعام واحد ، اضطرت سكان أتيكا إلى اللجوء إلى أثينا ،

وذلك بسبب غزو الإسبرطيين لبلادهم . وهكذا اكتظت المدينة بالسكان ، وكانت العناية الصحية ضعيفة ، ولهذا كانت الظروف أشد ما تكون ملائمة لانتشار الطاعون . وقد تفشى الطاعون فعلا ، وكان فتاكاً . ولتقتبس وصف توكيديديس له ، وهو أول وصف مفصل للطاعون ، في الأدب العالمي ، قال : « في أول صيف سنة ٤٣٠ ، غزا الـبيلوبونيزيون وحلفاؤهم أتیکا ، بثلى قواتهم السابقة ، تحت قيادة أرخيداموس بن زيوكسيداموس ملك اللقدمونيين . وبعد أن ثبتوا أقدامهم ، تقدموا إلى نهب البلاد . وقبل أن يقضوا في أتیکا بضعة أيام ، ظهر الطاعون لأول مرة بين الأثينيين . وقيل إنه ظهر في عدة أماكن قبل ذلك ، في ليموس مثلاً ، وفي غيرها . ولم يعرف طاعون تفشى على هذا النطاق ، ولا كارثة فتكت بالأرواح هذا الفتك الذريع ، في أى بلد من البلاد . فلم يكن هنالك أطباء يستطيعون مكافحة الداء ، إذ أنهم أقدموا في بادئ الأمر على علاجه ، دون أن يعرفوا كنهه . وكثرت الوفيات بينهم ، لأنهم كانوا كثيرى التعرض له ، ولم يكن هنالك وسيلة بشرية أخرى . ولم تنفعهم الابتهالات في المعابد ، ولم يجدهم اللجوء إلى المعجزات وما يشبهها فتيلاً . وما لبثوا أن أشاحوا وجوههم عنها ، عندما قهرتهم الكارثة .

« وقد قيل إن الداء تفشى أولاً في إثيوبيا ، فيما وراء تخوم مصر ، ثم زحف على مصر وليبيا ، وانتشر في معظم بلاد الملك . ثم ما لبث أن انقض ، على حين غرة ، على مدينة أثينا . وهاجم أولاً سكان بيريه . وقال الناس هناك ، إن الـبيلوبونيزيين سمموا أحواض شربهم ، إذ لم يكن هناك ، حتى ذلك الوقت ، ينابيع عامة للشرب . ولم يلبث أن بلغ المدينة العليا أيضاً ، ومنذ ذلك الحين أخذ عدد الوفيات في الازدياد . وهنا أصبح كل إنسان ، سواء أكان من الأطباء أم من العامة ، يدلى برأيه فيما يختص بالمصدر الذى تحدر منه ، ويذكر الأسباب التى يتراءى له أنها مبررات كافية لحدوث هذا الحدث الكبير الخارج على المألوف . ولكننى سأصف المجرى الحقيقى الذى سار فيه ، وأشرح أعراضه التى لو استوعبها إنسان ما ، لأصبح قادراً — بما يتوافر لديه

من معرفة سابقة به — على اكتشافه لو اتفق أن تفتشى مرة ثانية ، وذلك لأننى شخصياً أصبت بالداء ، ورأيت أناساً أصيبوا به .

وقد أقر الجميع ، بأن هذه السنة كانت على غير العادة خلواً من أى مرض من الأمراض الأخرى . أما الأشخاص الذين صادف أن كانوا مصابين بمرض من الأمراض آنذاك ، فقد يرثوا منه لدى هجوم الداء الجديد . وفى حالات أخرى ، كان الأصحاء يصابون فجأة ودون سبب ظاهر بحمى مرتفعة فى الرأس ، وباحمرار والتهاب فى العينين ، وباطن الشدقين . وسرعان ما يصبح الحلق واللسان فى لون الدم ، ويصعد المصاب أنفاساً غريبة كريهة الرائحة . وفى المرحلة الثانية يبدأ العطاس والبحة ، وفى وقت قصير ينتقل الاضطراب إلى الصدر ، ويصعبه سعال شديد . وعندما يستقر فى المعدة ، يختل نظامها ، ويتلو ذلك تقيؤ ، يلزمه جميع أنواع الصفراء التى يعدد الأطباء أسماءها . ويشعر المريض فى ذلك كله ببلاء عظيم . وفى أكثر الحالات يتلو هذا تجشؤ يسبب انتفاضات شديدة ، قد تزول بسرعة وفى أحيان أخرى تستمر فترة طويلة . وإذا جسست الجسد من الخارج ، لا تحس بجمرة شديدة . ولم يكن لون البشرة شاحباً ، بل أحمر ضارباً إلى الزرقة ، تنفجر منه بعض البثور والتقرحات ، ولكنه كان من الداخل ، يتأجج حرارة ، حتى إن المصابين لا يحتملون أن تغطى أجسامهم بأرق الدثر أو الأغشية الكتانية . ولهذا يؤثر أن يظلوا دون غطاء ، بل يفضلون على ذلك أن يقدفوا بأنفسهم إلى الماء البارد — وقد رى أكثر المرضى المهملين أنفسهم فى أحواض الماء بالفعل — وكم أضعفهم سعار العطش الذى لا تنفع له غلة ، سواء شربوا كثيراً أم قليلاً ، وكان الانزعاج والأرق اللذان لا ينقطعان ، يقضان مضاجعهم . ولم يكن الجسد يفتنى ، والمرض فى أوج شدته ، بل كان يقاوم بدوات الداء مقاومة عجيبة ، حتى إن المريض عندما كان يسلم الروح ، بسبب الحرارة التى تتأجج فى داخله — فى اليوم السابع أو التاسع كما حدث لأكثرهم — كان لا يزال محتفظاً ببعض قوته . وعندما يجتازون الأزمة ، ينحدر المرض إلى

أحشائهم ، حيث يسبب تقرحاً شديداً ، ويؤدي إلى إسهال حاد . وأكثر المرضى ، يهلكون في هذه المرحلة ، بسبب الهزال الذى ينتج عن الإسهال . لأن الداء الذى بدأ في الرأس أولاً ، أخذ يتحدر حتى انتشر في جميع الجسم ، فإذا قدر للإنسان أن ينجو من هذا الخطر ، تمكن الداء من الأطراف على الأقل ، وترك آثاره هناك ؛ لأنه ينقض على العورات ، وعلى أصابع اليدين والقدمين ، وكثيراً ما يفتدى المريض نفسه بضياح هذه الأجزاء منه ، على أن بعضهم كان يفقد عينيه أيضاً . وفي بعض الحالات كان يفقد المريض ذاكرته عقب المرض مباشرة ، وينسى كل شيء حتى إنه لا يتعرف إلى نفسه أو إلى أصدقائه<sup>(١٠٢)</sup> .

حقاً أثبتت طبيعة المرض ، أنه من النوع الذى يفوق حد الوصف . وقسوة الداء كانت في كل مرة أكثر مما تحتمله الطبيعة الإنسانية . وفي حالة واحدة برهن ببساطة على أنه يختلف عن أى مرض من الأمراض المعروفة ، وذلك أن الجوارح والحيوانات التى تدب على أربع مما يغتذى عادة باللحوم البشرية ، كانت لا تقرب من الجثث ، مع أن أكثرها كان يطرح في العراء دون دفن . وإذا حدث أن ذاق منها شيئاً فإنها سرعان ما تموت<sup>(١٠٣)</sup> .

ولا ينهى الوصف هنا ، ولكننا أوجزنا أهم ما جاء فيه مما يتعلق بالناحية الطبية . ولنلاحظ أن الأثينيين عزوا الطاعون في بادئ الأمر ، إلى تسميم العدو لأحواض الشرب عمداً . وهذه الظاهرة تنجلي في الأوصاف العديدة ، التى وصلتنا عن الطواعين . حتى القرن السابع عشر<sup>(١٠٤)</sup> . والوصف الذى جاء به ثوكيديديس ، يبدو واضحاً للعامه ، إلا أنه لا يعتبر كافياً من حيث التشخيص الطبى . وربما كان الداء جديداً ، أى إنه كان نتيجة لظهور بعض الميكروبات ، التى لم تكن أجسام الأثينيين مستعدة لمقاومتها ، ولعل هذا ما يبرر قسوته وفتكه (على الرغم من أن شدة الزحام والجوع والقدارة ، تبرر جزءاً كبيراً من ذلك ، حتى لو كان الميكروب قديماً) . ونحن نعلم أن الأوبئة ، إذا اجتاحت أرضاً بكراً ، فإنها تفتك بها فتكاً ذريعاً ، كما حدث في الطاعون الأسود في منتصف

القرن الرابع عشر ، والزهرى فى نهاية القرن الخامس عشر (١٠٥٠) ، ووباء الجدرى الذى اجتاحت الأرتكيين سنة ١٥٢٠ (١٠٦٠) ، والكوليرا الأوربية الوافدة سنة ١٨٣١ - ١٨٣٢ ، ووباء الحصبة فى جزائر الفييجى سنة ١٨٧٥ . ويمكننا أن نستشهد بأمثلة مشابهة نستمدّها من تاريخ الأوبئة التى تغزو عالم النبات والحيوان ، ككارثة الدودة الفجرية التى ظهرت فجأة فى ولاية ماساتشوستس سنة ١٨٨٩ ، وفلسة سان جوزيه فى ولاية أمريكا الشرقية سنة ١٨٩٣ ، ودودة القطن فى تكساس سنة ١٨٩٤ ، وما إلى ذلك .

وقد يكون طاعون أثينا الأول من نوعه ، ولم يتكرر ثانية فى التاريخ . ومن الطبيعى ألا يقاس رد فعل شعب لم يغزه الداء بعد ، إلى رد فعل شعب غزاه الداء ، وحصل على نوع من الاعتياد والمناعة .

وقد بذلت عدة محاولات لتحديد نوع طاعون أثينا ، إلا أن تكرار المحاولات يدل على شك العلماء فى النتيجة . ولم يكن شىء من تخميناتهم مقنعاً ، إذ أن النتيجة لم تكن قطعية ، ولم تعد طور التخمين والظن . فهل كان طاعوناً قرحياً ، أم مرض الجدرى ، أم حمى التيفوس أم حمى التيفويد ؟ لقد قدر شروزبرى ، عقب بحوثه الأخيرة ، أنه ليس إلا حصبة (١٠٧) ، وذلك أمر محتمل . وتحتوى رسالته على ثبت طويل بالمراجع ، إلا أنه لم يذكر كتاب «ثوكيديديس» لفابنلى (١٠٨) . والمؤلف فى هذا الكتاب القيم ، يقدر (أو يكرر) أن الداء لم يكن من النوع المعدى ، بل كانا تسمى تعقياً (١٠٩) . ولعل الحصبة هى خير تخمين ، ولكن أنى للإنسان أن يتأكد من ذلك ؟

ومما يدل على افتقار أكثر المؤرخين (ومنهم المعاصرون أيضاً) ، إلى العقل العلمى ، أنهم اعتبروا وصف ثوكيديديس الطبي للمرض ، نوعاً من الاعتراف والرهق . ولكن ذلك لم يكن بالنسبة إلى عقل ثوكيديديس العالمى ، تعسفاً أو رهقاً ، بل كان من صميم موضوعه ، فقد كانت الحساثر الصحية التى نتجت عن الطاعون فادحة . كما كانت النتائج المعنوية أشد فداحة . وباستطاعة الإنسان أن يقول إن الطاعون كان البداية التى أدت إلى الهزيمة النهائية ، التى منيت تاريخ العلم

بها أثينا . وبعد هذا كله ، ألا يستدعى الأمر معرفة كنه الطاعون ؟ وكيف تفشى ؟ وكيف تلاشى ؟ هذه قضية واضحة تحتاج إلى تفصي الأسباب والتحليل والدراسة (Prophasis, Diagnosis, Therapeia) . وليس لنا أن نتمنئ توكيديديس بالخطأ ، لأن تحليله لم يكن مفيداً ، إذ أنه أدى واجبه على كل حال ، أى واجب المؤرخ العلمى .

وبما هو جدير بالذكر أيضاً ، أن لوكريتيوس ( النصف الأول من القرن الأول ق.م ) ، أعظم شاعر فلسفى ظهر فى العصر القديم ، أدرك الأهمية الحقيقية لهذا الوصف ، وأعادته فى صورة مخيفة حين ختم به قصيدته « طبيعة الأشياء » (١١٠) . معتمداً على ما جاء فى كتاب توكيديديس .

أوردنا قصة الطاعون بشيء من الإسهاب ، وبلغه المؤلف نفسه ، لأنها تكاد تكون الجزء التاريخى الوحيد ، الذى يعنى مؤرخى العلوم مباشرة . أما وصفه للإشارات الضوئية التى كانت ترسل من قمم الجبال (١١١) ، فقد تم مؤرخى التكنولوجيا . ولكن هذا النوع البدائى من الإشارات التلغرافية ، لا بد أن يكون قد استعمل قبل ذلك الوقت بأمد طويل (١١٢) . إذ أننا نعلم أن كثيراً من الشعوب البدائية اعتادوا أن يبلغوا بعض رسائلهم بالمشاعل أو الطبول ، وقد كان قرع الطبول خاصة يمكنهم من إرسال إشارات غاية فى التعقيد . ويحتوى مصنف توكيديديس أيضاً ، على إشارات إلى ثلاث حوادث كسوف وخسوف ، وهى : الكسوف الذى وقع فى ٣ أغسطس سنة ٤٣١ (١١٣) ، والكسوف الحولى الذى وقع فى ٢١ مارس سنة ٤٢٤ (١١٤) ، والخسوف الذى وقع فى ٢٧ أغسطس سنة ٤١٣ (١١٥) . وهذه الحوادث التى وقعت فعلاً تساعدنا على توكيد أمانة المؤلف .

هيرودوت وتوكيديديس :

بعد أن تعرفنا إلى أعظم رائدين من رواد علم التاريخ عند اليونان ، نستطيع أن نقف لحظة لنقارن بينهما :

كان كل منهما نوعاً قائماً بذاته . وما هو جدير بالملاحظة أن أمة واحدة استطاعت أن تهديهما للبشرية ، في خلال نصف قرن واحد . وقد عاشا عمريين متقاربين ( فقد توفى كل منهما وهو في العقد السادس من عمره ) ، وكانت الفترة التي تفصل بينهما عشرين سنة . وهكذا عاصر كل منهما الآخر ، ذلك النوع من المعاصرة الذي يكون بين الآباء والأبناء . وكانت فترة عشرين سنة تعتبر شيئاً ذا قيمة ، في عصر البطولة ذاك وإن لم تكن شيئاً مذكوراً . والفرق الأساسي بينهما ، فيما يختص بالظروف المحيطة ، أن هيرودوت كان وليد الحرب الفارسية ، بينما شكيديديس الحرب البيلوپونيزية . وكذلك كان هيرودوت كارياً ، يكتب باللغة الأيونية . بينما كان شكيديديس أثينياً أبداع النثر الأتيكي . انحدر الأول من تخوم الهلينية ، بينما كان الثاني من صميمها .

وكانت ثقافة هيرودوت في صباه عملية تجارية ، بينما كان شكيديديس من تلامذة السفسطائيين الأثينيين ، وإذا ما قارناه بسلفه نستطيع أن نعتبره من خريجي الكليات .

لكن الفروق بين شخصيتهما ، أكبر في الحقيقة من الفروق بين الظروف التي أحاطت بهما . وأتيح لكل منهما أن يتمرس بنفس التجارب التي تمرس بها الآخر . فكانت تراقيا من بلاد التخوم ، كما كانت كاريا . وكانت الحربان سواء من حيث الشدة ، وقد رحل كل منهما ، وتعرف إلى أصناف مختلفة من البشر .

ولكن هيرودوت طبعاً أتيح له أن يسافر أكثر من خلفه ، وكانت رحلاته هي الإطار الكبير الذي كون إطار مصنفه . وقد درس فترة أطول من التاريخ الماضي ، وعرف عالماً أكثر اتساعاً ( جميع oicumene في الواقع ) ، ورسم على رقعة نطاق أوسع . ويعتبر شكيديديس بالنسبة إليه ، كراسم المنمنمات ، بالنسبة إلى راسم اللوحات الكبيرة ، إذ أنه عنى بالعالم اليوناني فقط ، وبفترة تقع في سبعة وعشرين عاماً -- وإذا حذفنا المقدمة فلا يتناول كتابه أكثر من

عشرين عاماً مقابل ألف عام . وبلاد اليونان ، مقابل العالم المأهول بأجمعه . وقد كان هيرودوت قاصاً موهوباً مادته غزيرة . وكان طالعاً . صبيانياً . فيثاجورياً . نصف شرقى . يحب العجائب والغرائب . وكان أسلوبه سلساً متدفقاً طليئاً . أما ثوكيديديس . فإنه لم يحصر جهده في موضوع صغير فحسب ، بل إنه تفيد به تمام التفيد . وكان عقله صارماً صرامة أسلوبه والضحك عنده غير مباح . وكان سياسياً واقعياً ، إيجابياً في تفكيره ، ورجل علم . أما مقاييس الدقة عندهما فتباينة . فقد بذل هيرودوت شيئاً من الجهد في البحث عن الحقيقة . وكان يقوفاً بإخلاص ، ولا يعفياً من النقد . ولكن أنى للإنسان أن يلم بالجغرافية البشرية لجميع العالم ، بالإضافة إلى تاريخ الشرق القديم ؟ ومن ناحية أخرى ، كان من الممكن إن لم نقل من السهل . أن يقص الإنسان بدقة الاضطرابات العسكرية والسياسية ، التي وقعت بين أكبر شعبين من شعوب اليونان ، في فترة لا تتجاوز الثلاثين عاماً . وقد عينا معاً بالإنسان . أما عناية هيرودوت فكانت عناية الرحالة المثقف . وأما ثوكيديديس فكان شأنه في ذلك شأن السوفسطائى ورجل السياسة .

وفي النتيجة النهائية شيء من الغرابة . فمصنف هيرودوت يحتوى على مواد تهم مؤرخ العلوم . بينما نجد أن كتاب ثوكيديديس أكثر أهمية في نظر دارس التاريخ السياسى . وقد يروق لمؤرخ العلوم أن ينحيه جانباً . ولكن من الخطأ أن يفعل ذلك . وعلى وجه الإجمال ، يعتبر مصنف ثوكيديديس أثراً من آثار علم التاريخ . واتجاهه إلى تطبيق الأسلوب العلمى في دراسة الماضى يعتبر الأول من نوعه ، وهو من أهم الآثار في نظرنا اليوم . وإذا تركنا جانباً ، وصفه لبعض الأفكار الرياضية ، والبحوث الطبية . لابد لنا أن نعتبر مصنفه أعظم أثر علمى ظهر في ذلك العصر الذهبى .

### كتسياس الكنيديسى :

من المستحسن أن نتحدث عن مؤرخ ثالث ، هو كتسياس الذى يتسمى

إلى كنيديوس . وهو أقل أهمية من هيرودوت وثوكيديديس . وأقل شهرة منهما . لأن مصنفى هذين المؤرخين . وصلاً إلينا كاملين . بينما لم يقع في أيدينا إلا نتف من كتاب كتيسياس . ومع هذا تعتبر شخصيته فذة من عدة نواح . وأول ما يظالنا فيه أنه يساعدنا على أن نفهم . أن فارس واليونان . على ما كان بينهما من الاختلاف . بل من العداة . لم تكونا منفصلتين تمام الانفصال . كما أن فارس لم تكن معزولة عن الهند . فقد كان الناس يمرون من بلد إلى بلد . كما يمرون اليوم . رغم القيود الموضوعة . من روسيا إلى الغرب وبالعكس .

وفوق ذلك . كان كنيسياس طبيباً . وقد ولد في كنيديوس<sup>(١١٦)</sup> ، حيث ازدهرت مدرسة طبية متألفة ، ولم يكن طبيباً فحسب . بل كان أبوه رجده كذلك . وقد أسره الفرس ، حوالي سنة ٤١٧ ، وعين حاجباً في البلاط الفارسي . وكان طبيباً لدارا الثاني (٤٢٤ - ٤٠٤) ولأرتاكسر كسيس الثاني . نيمون (٤٠٤ - ٣٥٨) . وقد كانت باريساتس الملكة ، وأخت دارا . حاميته الأولى . وظلت قوية فيما بعد . إذ كانت الملكة الوالدة . وقد ساعد أرتاكسر كسيس في معركة كوناكسا<sup>(١١٧)</sup> . سنة ٤٠١ . وعقب ذلك مباشرة أرسل مبعوثاً إلى حكام قبرص<sup>(١١٨)</sup> اليونانيين . ولم يعد ثانية إلى فارس . إذ ولى وجهه شطر بلده كنيديوس (٣٩٨) ، التي لم تكن بعيدة جدا . وفي كنيديوس كتب آثاره . والأغلب أنه قضى الشطر الأخير من حياته أيضاً فيها . وهكذا تكون آثاره كتبت في أوائل القرن الرابع ، وتتناوله بالحديث في هذا الفصل لأن كتاباته نتيجة خبرته التي تمارس بها في الشرق ، وقد جمع أكثرها في القرن السابق .

وأهم آثاره « الفارسي » (Persica) ، ويدور حول تاريخ آشور وفارس ، ويقع في ثلاثة وعشرين كتاباً ، و « الهندي » (Indica) ، وهو مجلد واحد يدور حول الهند ، (الشكل رقم ٦٩) . وقد حفظ ديودورس الصقلي (النصف الثاني من القرن الأول ق.م) ، أجزاء من هذه الكتب ، وكذلك

فعل نقولا الدمشقي ( النصف الثاني من القرن الأول ق.م ) وسواه . إلا أن فوتيوس القسطنطيني ، ( النصف الثاني من القرن التاسع ) هو خير من عني به . وقد يعترض عليه بأنه راوية متأخر جداً . ولكن التأخير هنا لا يؤثر كثيراً ، إذ يظهر أن فوتيوس كان يحفظ بالمخطوطات الأصلية في حوزته . ففي فهرسه (Bibliotheca or Myriobiblon) (التي أتمها قبل سنة ٨٥٧) ، جمع خلاصات ما يقرب من ٢٨٠ كتاباً ، ضاع أكثرها . فقالتة عن « الفارسي » مثلاً تبدأ على الوجه التالي : « اقرأ مؤلفاً لكثيسياس الكينيدوسي ، اسمه " الفارسي " ، يقع في ثلاثة وعشرين كتاباً . والسنة الأولى ، تتناول تاريخ آشور ، وتنبئ عن بعض الأحداث التي سبقت الوقائع الفارسية » . وهذا العرض ، في نصه اليوناني ، يقع فيما يقرب من ٨٥٠ سطراً . وعرضه للكتاب الثاني ، يبدأ على الصورة ذاتها : « اقرأ " الهندي " ، لنفس المؤلف ، وهو يقع في جزء واحد . وقد استعمل اللهجة الأيونية في كتابته » . وهذا العرض أصغر حجماً من السابق ، ويقع نصه اليوناني في حوالي ٤٤٢ سطراً .

ولقد نشر ر . هنري (١١٩) ، طبعة يونانية فرنسية متقنة للملخصات فوتيوس . ولكننا نحتاج حقاً ، إلى طبعة جديدة مصححة ، لكل أقسام كتاب كثيسياس و (the Doxography) التي تنسب إليه (١٢٠) . أما الكتب الستة الأولى من كتاب « الفارسي » ، التي خصصت للتاريخ الآشوري ، فقد حفظها لنا ديودورس الصقلي . ونحن مدينون لنقولا الدمشقي بوصف هزيمة أستياجس ، ملك ميديه ، التي أوقعها به قورش سنة ٥٤٩ ، وببداية السيطرة الفارسية . أما ما تبقى من تاريخ فارس (حتى سنة ٣٩٨) ، فقد لخصه فوتيوس الذي عزا المؤلف إلى هيرودوت .

وقد استقى كثيسياس معلوماته عن التاريخ الفارسي من هيرودوت ، الذي طالما تناوله بالنقد ، وأضاف إليها الكثير من المعلومات التي حصل عليها أثناء إقامته الطويلة في البلاط الفارسي . ويمكننا أن نتصور أن الملك



أو مساعديه كانوا يقصون عليه القصص ، أو أن الملكة المتغطرة باريساتس ، ووصيفاتها كن يفعلن ذلك . وأكثر من هذا لم يكن سوى إشاعات ملفقة ، تحتاج إلى تمحيص كثير ، حتى إننا نستطيع أن ندعوه - لا أبا التاريخ كما دعونا قرانه - ولكن أبا الحكايات التاريخية ، وهو لقب لا يشرفه كثيراً . وعلينا أن نستغل الحكايات التاريخية ، عندما تعوزنا المادة التاريخية الثقية . والمعلومات التي جمعها كتيسياس ، كانت في الغالب مفيدة جدا . وعندما نراه يناقض هيرودوت لا يحق لنا أن نتسرع ونحكم بأن ما أتى به هيرودوت هو الصحيح ، مع أنه ، على وجه العموم ، يمكن الاعتماد عليه أكثر من كتيسياس .

ويمكننا أن ندرك جيداً افتقاره التام إلى التمحيص من وصفه للنقش البهشتوني (١٢١) ، الذي أقيم سنة ٥١٦ ق.م . وهو يقص خبر انتصار دارا الأول على أتباعه العصاة . وقد كتب بالخط المسامري ، بثلاث لغات هي الفارسية والعليلية والأكدية . وهذا النقش له أهمية كبيرة في نظر علماء اللغات ، لأن النقوش المتشابهة ، تساعد على حل رموز اللغات المجهولة . وقد دعى بحجر رشيد المسامري (أو الأشوري) . أما كتيسياس الذي وجد بعد إقامة هذا النصب بقرن ، على الأكثر ، حين كانت الروايات المتداولة عنه لا تزال شائعة ، فقد قال إنه كتب بالأحرف الآشورية ، ونسبه إلى الملكة الآشورية سميراميس ! وقد يظن الإنسان أن معلومات البلاط الفارسي عن هذا الموضوع كانت أكثر دقة . إلا أن سميراميس الأسطورية ، كانت بطله روايته الآشورية الرومانسية .

وقد وصف هيرودوت طريق الإمبراطورية الفارسية الرئيسي ، الذي يمتد من أفسوس إلى سوس ، إلا أن كتيسياس تابع الوصف حتى بلغ باكتريا والهند ( ووصفه هذا مفقود ) .

وهناك قصة أخرى موثوقة رواها كتيسياس . وهي تلك التي تتعلق بوجود القار والنفط في بابل :

« ومع أن المشاهد التي يمكن أن يقع عليها النظر في بابل كثيرة ورائعة ، إلا أن كمية القار المائلة التي تنتجها البلاد لا تقل روعة عن كل ذلك . وقد بلغ إنتاجه كمية عظيمة ، حتى إنه لا يكفي لإشادة أبنيتهم الكثيرة الضخمة فحسب ، بل إن عامة السكان الذين يقطنون تلك البقعة يستنبطونه دون قيد ، ويجففونه ليستعملوه وقوداً بدلاً من الحطب . وعلى الرغم من أن عدد الأهالي الذين يستفيدون منه كبير جداً ، فإنه يبقى على حاله ، ولا ينضب له معين ، وكأنه يفيض من عين ثرة . ونجد إلى جانب هذا المنبع حفرة أخرى لا تقارب الأولى في حجمها ، إلا أنها ذات أثر كبير ، إذ أنها تنفث بخاراً كبريتياً كثيفاً ، يقتل جميع المخلوقات الحية التي تقترب منه ، وهي تؤول إلى نهاية سريعة عجيبة . إذ أنها تفارق الحياة بعد أن تصاب بضيق النفس فترة من الزمن ، وكأن تلك الآفة التي طرأت على جهاز التنفس هي التي كانت تحول دون خروج النفس . وسرعان ما يتورم الجسم ويتنفخ ، وخاصة في المنطقة التي تحيط بالرئتين . وتقع على النهر أيضاً بحيرة ضفتها صلبة ، وإذا ما خاضها امرؤ ليس له بها سابق معرفة ، فإنه يستطيع أن يسبح فيها فترة قصيرة من الزمن ، ولكنه عندما يقترب من الوسط يأخذ في التقهقر إلى الخلف ، وكأنه مدفوع بفعل قوة خفية ، وعندما يحاول أن يستجمع قواه ، ليعود إلى الشاطئ ثانية» ، فإنه يشعر وكأن شيئاً ما يشده إلى الخلف شداً ، على الرغم من أنه يبذل جهده كي يفك إسهاره . ثم يصاب بالشلل الذي يتسرب إلى قدميه أولاً ، ثم يصعد إلى ساقيه حتى الحقوين ، ثم ما يلبث أن يتنشى في جميع جسمه . فيغور إلى القاع ، ثم تقذفه الأمواج وقد أسلم الروح» (١٢٢) .

وهذا الوصف يؤكد ما ذكره هيرودوت (١٢٣) ، عن القار في أيس (١٢٤) . إلا أن وصفه للهند كان أكثر إمعاناً في الخرافة من وصفه لفارس . فقد عاش كتيبياس في فارس عدة سنوات قضاها بين ظهراني الفرس . ولكنه لم يسبق له أن زار الهند ، ولهذا يبدو لنا في أخباره عنها وكأنه ينظر إليها بمنظار فارسي . فالهند تعني ، في نظره ، إقليم الهندوس ، والهيداسبس . ومن العجيب

أن كتيبياس لم يتحدث عن تاكسيلا ، التي كانت حينئذ أعظم مدينة في ذلك الإقليم ( إقليم البنجاب ) . ولكن هذا كله لا ينتقص من قيمة « الهندي » ، لأنه بقي عند الغربيين ، المصدر الوحيد للأساطير الهندية ، لفترة طويلة من الزمن .

ولنعد إلى الناحية الطبية . فهناك فصل يتعلق بالحربق الأسود (١٢٥) ، في مجموعة أورباسبوس الطبية (١٢٦) ، وهو منقول عن كتاب كتيبياس . وفحواه ما يلي :

« كان أبى وجدى لا يجردان على وصف الحربق الأسود ، لأنهما لم يكونا يعرفان طريقة تجهيزه ، والكمية التي يجب أن تعطى للمريض . وكان الرجل إذا نصح المريض بتجرع الحربق يطلب إليه أن يكتب وصيته أولاً . وكان يحنق عدد كبير من هؤلاء الذين يتجرعون ، وقل من بقي منهم على قيد الحياة . ولكن استعماله اليوم أصبح مأمون العواقب » .

وهذا القول ينطوى على فائدة عظيمة ، لأنه يكشف لنا عن تطور علم الأقرباذين في كنيديوس خلال انصرام أجيال ثلاثة . ويظهر أن أطباء كنيديوس كانوا يجرون بعض التجارب الطبية ، ويراقبون نتائجها .

ويستنتج من كثرة الرجوع إلى مصنف كتيبياس ، في المصادر اليونانية والبيزنطية ، أنه كان مؤلفاً مرموقاً . ويظهر أن عدده الذين قرأوا كتابه يفوق عدد أولئك الذين قرأوا كتاب هيرودوت . حتى إن رجالاً كأفلاطون وأرسطو كانوا على علم به . ويمكننا أن نفترض أيضاً ، أن الإسكندر الأكبر ، تلميذ أرسطو ، اطلع عليه . وينبئنا نيانرخوس ( ٢ - ٦٧ ق.م ) ، قائد أسطول الإسكندر ، أن الملك كان معجباً بالحكايات التي تروى عن سميراميس وقورش (١٢٧) . وخيال الرجال العاملين يتأثر عادة بالأساطير ، أكثر مما يتأثر بسرد الحقائق العلمية . ويظهر أن كتاب هيرودوت كان من الحفاف العلمى بحيث لا يروق للملك العظيم ، بينما كان كتاب كتيبياس أكثر جاذبية . وبهذا يتحمل كتيبياس طرفاً من المسؤولية ، في حملات الإسكندر الآسيوية .

## تعليقات

( ١ ) Henry Fanshawe Tozer (1829-1916), *History of ancient geography* (1897); second edition with notes by M. Cary (Cambridge: University Press, 1935) (Isis 26, 537 '1936'). E.H. Warmington, *Greek Geography* (London: Dent, 1934) (Isis 35, 250 '1944'), anthology of Greek and Latin Extracts translated into English J. Oliver Thomson, *History of ancient geography* (Cambridge: University Press, 1948) (Isis 41, 244- '1950').

( ٢ ) بالإضافة طبعاً إلى عاينين من علماء اتاريخ هما هيرودوتس وكتيسياس . وآثارهما مليئة بالمعلومات الجغرافية .

( ٣ ) هيرودوت الكتاب الرابع ، الفصل ٤٤ ، وما اقتبسناه في هذا الفصل جميعه أخذناه من ترجمة. A.D. Godley's (Loeb classical library vol. 2, p. 243) لأنه من خير ما يوضح هيرودوت ، كما أنه مرجعنا الوحيد فيما يتعلق بسكيلاكس . وقد كانت باكتيكا غربى الهندوس ، وهى المنطقة التى تدعى جلال آباد فى شمال شرقى أفغانستان . ولم يتمكن سكيلاكس من الإبحار فى الهندوس ، « فى اتجاه الشرق » ، لأن مجرى النهر يسير فى اتجاه الجنوب الغربى . وكانت جغرافية هيرودوت ، بوجه عام ، غامضة . وحل من الممكن أن تكون معلوماتنا عن المناطق النائية أكثر دقة إذا لم يكن لدينا خرائط ؟ وعبارة « الفينيقيون الذين ذكروا آنفاً » ، تعنى ستبس الذى لم يكن فينيقياً ، والذي جاء بعد سكيلاكس . ولكن السنوات التى يذكرها هيرودوت كانت دائماً غير دقيقة . لأنه لم يكن لديه تقويم بالسنين .

( ٤ ) فى كاريا التى تقع فى الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى . وقد كانت كريندة ، على جزيرة صغيرة لا تبعد عن هاليكارناسوس ، مسقط رأس هيرودوت ، كثيراً . وربما كان هيرودوت قد سمع بعض الروايات المحلية التى تدور حول سكيلاكس .

( ٥ ) لم تعرف حقيقة الرياح الموسمية إلا فى زمن هبالوس ، الذى ظهر فى القرن الأول قبل

المسيح أو بعده راجع : Tomson, *History of Ancient Geography* pp. 176;

( ٦ ) Dhow or dow; See Henry Yule and A.C. Burnell, *Hobson Jobson, A glossary of colloquial Anglo-Indian words and phrases* (new ed. by William Crooke, London 1903), p. 314. Dhow navigation as practiced to day has been beautifully described by Alan Villiers, *Sons of sinbad* (New York : Scribner 1940) See also Richard Le Baron Bowen, Jr., *Arab dhows of Eastern Arabia* (64 pp., 37 ills.; Rehoboth, Massachusetts: privately printed, 1949) (Isis 42; 357 '1951').

( ٧ ) Claude Bourdon, *Anciens canaux, anciens sites et ports de Suez* (Cairo 1925), pp.

12-30, pl. 2. ونقش دارايوس يوجد فى the stela of al Kabrit ، التى تقع الآن فى حدائق

هيئة قناة السويس بالاسماعيلية .

(٨) ربما كان رأس كانتين ، ٣٦° - ٣٢° شمالاً ، وفي العربية رأس الخديق ؟ . ويقع على الساحل المراكشي على خط عرض جزائر المدير ( ٤٠° - ٣٢° شمالاً ) .  
(٩) هيرودوت الكتاب الرابع الفصل ٤٣ ( الترجمة المشار إليها في هامش رقم ٣ ج ٢ ص ٢٤١ ) .

(١٠) خط عرض رأس الرجاء الصالح هو ٢٢° - ٣٤° جنوبياً . حتى هنرى الملاح نفسه ( ١٣٩٤ - ١٤٦٠ ) لم يستطع تصور حجم أفريقيا ، واعتقد أن القدماء استطاعوا أن يدوروا حولها .

(١١) أرسل القرطاجيون حملة مسلحة إلى صقلية بقيادة هملكار . وقد باءت بالإخفاق ، وقتل هملكار سنة ٤٨٠ . وقد كان المظنون أولاً أن هنون هو ابن هملكار ، وعلى أساس هذا أرخت حملته بسنة ٤٧٠ . إلا أن هذا الظن لا دليل عليه ، واسم « نون » شائع في قرطاج . والأفضل أن نتمسك بأن الحملتين كانتا متعاصرتين . وأن حملة هملكار وقعت في أول القرن .

(١٢) suffete ( سوفيت ) ، اصطلاح بوني ( قرطاجي ) ، يعنى « الحاكم الأعلى » . انظر الكلمة العبرية ( شوفيت ) . والبونية إحدى اللهجات الفينيقية . والفينيقية والعبرية من أصل واحد .

(١٣) الرمان ٦٠ ، و ٣٠,٠٠٠ لا يتطابقان . لأن هذه السفن ذوات الخمسين مجدافاً ، لا تستطيع واحدها أن تحمل ٥٠٠ راكب .

(١٤) واصلت الأمم الأوربية هذه الطريقة نفسها في أول فترة الاستعمار . وكانت البرتغال السابقة إلى ذلك . ولم تكن الإمبراطورية البرتغالية في آسيا ، في القرن السادس عشر ، سوى مجموعة من المحطات التجارية المنشورة على سواحل الهند ، وآسيا القصى ، والصين ، والجزر .

(١٥) رتشارد هلكويت ( ١٥٥٢ - ١٦١٦ ) ، مؤرخ إنجليزي للملاحة . انظر :

Isis 38, 130 (1947-48)

Pliny, Natural history VII, 197. (١٦)

(١٧) طرطوس ، مستعمرة فينيقية عند فم الوادى الكبير في الأندلس . ولعلها طرشيش ( حزقيا ٢٧ : ١٢ ، أرميا ١٠ : ٩ ) ، وقد ظلت مستعمرة مزدهرة ، إلى أن خربت سنة ٥٠٠ ، وحلت محلها مستعمرة فينيقية أخرى ، في نفس المنطقة ، وهى قادس .

(١٨) التفاصيل عن اتجار الفينيقيين بالقصدير غامضة جداً . وذلك يعود في الأكثر إلى أن الفينيقيين كانوا يخفون سر تجارتهم . وموقع جزر القصدير ( جزر كسيير يدس Cassiterides nesoi ) موضع اختلاف كبير . فهل هى بعض الجزر الإنجليزية ، أم أنها جزر أخرى في المحيط الأطلسي ؟

(١٩) R.F. Avienus (IV-2), in his poem "Ora maritima", Line 120

(٢٠) يقع بحر السرجاسو بين خطى عرض ٢٠ و ٣٥ شمالاً ، وخطى طول ٧٠,٤٠ غرباً . وهو محاط بتيارات تسير في اتجاه عقرب الساعة . وجزر الهرمودا تقع بالقرب من طرفه الغربى .

وجزر الأزور تقع على مسافة من الزاوية الشمالية الشرقية .

(٢١) *Fortunatorum insulae (ai ton macron nesoi)* ، أو الجزر المباركة وهي جزر الكناري أو جزر المدير .

(٢٢) الذي يدعى إلى التردد في الإنكار ، هو إشارة مشابهة وردت في كتاب (Mirabilia) الذي ينسب إلى أرسطو (١٣٦ ، نهاية ١٨٤٤) ومهما يكن الأمر ، فإن أرسطو وأفينوس ، يشيران إلى مكان من البحر ماؤه وشل . ولا يمكن أن يكون ذلك بحر السرجاسو .

(٢٣) قد يكون من المفيد أن يحتوي هذا القسم الجغرافي على دراسة للآراء الأولى التي تدرج حول فيضانات النيل . ولكننا تناولنا هذا الموضوع ، أثناء حديثنا عن أناكساجوراس .

(٢٤) هؤلاء العشرة آلاف كانوا من المرتقة اليونان ، وقد استأجرهم قورش الصغير ، الذي كان ، أحد الولاة الفرس ، وقد تأمر على أخيه الملك أرناكركسيس منيمون (حكيم من سنة ٤٠٥ - ٣٥٩) . وأقلع من سارديس ، في ربيع سنة ٤٠١ ، وقد تغلب عليه أرناكركسيس وقتله في سهل كوناكسا . شمال بابل ، فيما بين النهرين . أما المرتقة اليونان ، فقد حصلوا على عهد أمان من أرناكركسيس ، وساروا على نهر دجلة ، بمحاذاة ضفته اليسارية ، حتى وصلوا إلى رافده ، نهر الزاب الكبير ، وهناك قبض على قائدهم وضباطهم ، بجديعة ، فوجدوا أنفسهم دون رئيس أو مرشد . واختير كسينوفون قائداً لهم ، فسار بأكثرهم حتى بلغ بهم أرض الوطن بأمان . أما عنوان الكتاب (Anabasis) ، فإنه مفضل إلى حد ما . لأن الرحلة اشتملت على انحدار وصعود ، وانحدارهم الأخير نحو البحر الأسود ، كان طويلاً ، وقد درس الـ *Aranbasis* بعض الرحالين الذين حاولوا اقتفاء آثار كسينوفون ، ومنهم : (H.F. Tozer) الإنجليزي (سنة ١٨٨١) ، و (Eduard von Hoffmeister) الألماني (سنة ١٩١١) ، و (Athur Boucher) الإفرنسي (سنة ١٩١٣) . وهذه التواريخ ، هي تواريخ نشر كتبهم . (راجع المقدمة ج ١ ص ١٢٣)

(٢٥) اعترض البعض ، بأن وصف كسينوفون لم يكن دقيقاً ، بحيث يمكن للإنسان ، أن يرسم خط سيره على الخريطة . وهذا القول فيه كثير من الإجحاف . لأن التجوال في منطقة كجبال أرمينيا ، لا يمكن أن يوصف بدقة بالغة ، وذلك لانعدام علامات الحدود (الإنسانية) الدقيقة . أضف إلى ذلك ، أن كسينوفون وصف الإقليم الذي عبره مع جيشه وصفاً كافياً ، ولم يحاول وصف الشباب . والإنسان لا يستطيع أن يرسم خط سيره على خريطة كبيرة ، ولكنه يستطيع أن يفعل ذلك على خريطة صغيرة . وقد حدث ذلك مراراً .

(٢٦) إن اسم هاليكارناسوس ، مألوف عند أكثر القراء ، وذلك بسبب النصب الذي فيه . وهذا النصب هو عبارة عن بناء ضخم ، أقامته الملكة أرميزيا الثانية ، لإحياء ذكرى أخيها وزوجها موصولس ، والى كارييا ، من سنة ٣٧٧ - ٣٥٣ ق . م ، وقد خرب الإسكندر المدينة سنة ٣٣٤ . أما بقايا هذا النصب ، التي اكتشفها السير شارلس نيوتن سنة ١٨٥٧ ، فهي محفوظة في المتحف البريطاني وعلى الرغم من أن هذا النصب قد تهدم ، فإن أرميزيا نجحت في تحقيق غايتها ، وأصبحت كلمة

(موسوليوم) ، تعنى القبر الفخم . وكلما استعملنا هذه الكلمة ، انحنينا إجلالاً أمام موسولوس ، وأمامها .

وقد كانت هاليكارناسوس مسقط رأس عالين من علماء التاريخ ، هما هيرودوت وديونيسيوس (١-١ ق. م) .

(٢٧) لم يذكر فيليه (Philae) ، التي تدعى درة مصر ، لأن أقدم آثارها يعود إلى سنة ٣٧٠ ق. م) .

*De legibus I end of 1: "Quamquam et apud Herodotum, Patrem historia, (٢٨) et apud Theopompum sunt innumerabiles fabulae".*

أما تيروبوبوس الذي ينتمى إلى خيوس (٢ - IV ق. م) ، فقد كان يدعى في وقت من الأوقات رائد التاريخ النفسى ، وهو في ذلك سلف المؤرخ اليونانى تاكيتوس (٢ - I) (٢٩) من المتع حقاً أن نلاحظ ، تأخر ظهور الرائعة النظرية الأولى ، عن الروائع الشعرية . أما تاريخ الإلياذة ، فإنه غير مؤكد . ولكن أجزاء منها وجدت قبل مصنف هيرودوت ، بثلاثة أو أربعة قرون .

(٣٠) سستوس هي خير موافء الدردنيل ، وهي في الطرف الشمالى (الأوربى) . ومن هناك استطاع كسكرسيس أن ينقل جيشه من آسيا إلى أوربا ، على جسر من الزوارق . وكانت أول مدينة حررها الأسطول الأثينى من قبضة الفرس ، وكان ذلك سنة ٤٧٩ ؛ وقد بدأ ثوكيديديس وصفه التاريخى (*ta meta ta Medica*) ، في ذلك الحين .

(٣١) إشاراتي إلى كتاب هيرودوت ، تكون عادة إلى الكتاب والفصل ، مثلا الكتاب السابع الفصل ١٠٣ ، وهذا يسر للقارئ الاعتماد على أية طبعة أو ترجمة .

(٣٢) كلمة لوجوس logos التي تعنى قصة أو تاريخاً ، تتفق وكلمة logographos ، التي استعملت للدلالة على كتاب الحوليات التاريخية الأول .

(٣٣) الكلمة اليونانية barbaros ، لاتشير إلى هذا المعنى الذمى ، الذى اشتققناه نحن منها . وكلمة Barbaroi ، تقابل كلمة (Foreigner) الإنجليزية ، و (goyim) العبرية و (Gentiles) اللاتينية . وعندما تستعمل هذه الألفاظ للدلالة على شعب جاهل ضيق الأفق ، فإنها حينئذ تكون ذات معنى خاص . أما هيرودوت ، فقد استعملها ، كما يستعمل الأمريكى المهذب كلمة « أجنبي » ، دون أن يعنى بها أى ازدراء .

(٣٤) إن الاسمين المعروفين لأبوى هيرودوت ، كما ذكرهما سويداس (٢ - X) ، غريبان للغاية : نيكسيس وديرو . وهما أول اسمين من هذا النوع أمر بهما . وقد يكونان اسمين شرقيين ، صبغا بصبغة يونانية . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن هيرودوت نفسه يكون أجنبياً ، على الأقل من ناحية واحدة . ولتذكر أن اليونانى المحض ، كان قلة في آسيا .

(٣٥) هيرودوت الكتاب السابع الفصل ٩٩ ، والكتاب الثامن الفصل ١٠٣ .

(٣٦) هنالك تعليق لطريف على تسماع هيرودوت وكرم نفسه كته : Theodore Johannes Haarhoff

*The Stranger at the gate* طبع في (Oxford: Blackwell, 1938, 1948) ص ٢٠ ، ٢٢ .

راجع (Isis 41, 75 (1950) والمؤلف يدرك جيداً معنى التعصب المنصرى ، لأنه أستاذ الكلاسيكيات في جامعة وتوتوزراند ، في يوهانسبرج .

(٣٧) القارات الثلاث ، أو بالأحرى الأقسام الثلاثة - أوروبا وآسيا وليبيا - عرفت في أوائل القرن الخامس أو قبل ذلك . وقد اعترض هيرودوتس على ذلك (الكتاب الثاني الفصل ١٧) قائلاً : « يجب علينا أن نضيف قسماً رابعاً وهو مصر . ذلك أن النيل يفصل آسيا عن ليبيا . وبهذا تصبح مصر نصف آسيوية ، ونصف ليبية . وآراؤه التي تتعلق بالمساحات النسبية لهذه الأقسام ، طبعاً خاطئة .

W.W. How and J. Wells: "commentary on Herodotus" (Oxford 1912) vol. 1 p.17 (٣٨)

وفيه أسباب وجيهة تمنعنا بأن هيرودوت كان تاجراً .

(٣٩) هيرودوت الكتاب السابع ، الفصل ٦١ - ٩٩ .

(٤٠) المرجع السابق ، الكتاب الثالث ، الفصل ٨ .

(٤١) « تقلبات الحفظ » كانت موضوعاً شائعاً في الأدب الإغريقي . واستعارة « عجلة الحفظ » ،

وردت في إحدى مخطوطات سوفوكليس (رقم ٨٨١ ، من طبعة A.C. Pearson ج ٣ ص ٧٠) .

وفكرة العناية الإلهية تتضح لنا جيداً من الاسم الذي كان يطلق على أثينا . التي كانت تعبد في دلتا ،

وهو : Pronoia Athena

John Dewar Denniston, Oxford classical dictionary (Oxford: clarendon Press (٤٢)

1949) p. 423.

(٤٣) هيرودوت الكتاب الثاني الفصل ٢ .

(٤٤) فريجييا كانت الجزء الغربي من الهضبة الوسطى في آسيا الصغرى . وخير من يمثل

عظمتها ، الملك ميداس الأمطوري ، والملك ميداس الثاني ، الذي حكم من سنة ٧٣٨ - ٦٩٦ ق.م.

(٤٥) هيرودوت ، الكتاب الثاني ، الفصل ٣ .

(٤٦) هيرودوت ، الكتاب الثاني ، الفصل ١٢٣ .

(٤٧) هيرودوت ، الكتاب الثاني ، الفصل ٨٢ ، ٨٣ .

(٤٨) هيرودوت ، الكتاب الثاني ، الفصل ٤ .

(٤٩) هيرودوت ، الكتاب الأول ، الفصل ٣٢ .

(٥٠) هيرودوت ، الكتاب السابع ، الفصل ٣٧ .

(٥١) هنالك تحليل للمادة الكيماوية التي جاءت في كتاب هيرودوت ، كتب E.O. Von

Lippmann في مقالة : "Technologisches und Kulturgeschichtliches aus Herodot" .

Chem. Zeit, Nos 1, 7, 819 (1924)

وهو يقسمها إلى : العناصر ، والمواد المعدنية ، والمواد العضوية .

(٥٢) هيرودوت الكتاب الأول الفصل ١٩٣ .

(٥٣) راجع الفصل السادس ، حاشية رقم ٦ .

- (٥٤) أول من شرح لتلقيح النبات شرحاً علمياً هو رودلف يعقوب كيراريوس . (Rudolf Jacob Camerarius سنة ١٦٩٤ . أول تفسير وافي لتلقيح التين ، كته جورجيو جالسو (Giorgio Gallesio) راجع : (Ira, J. Conduit, *The fig* (Waltham: Chronica Botanica, 1947) (*Isis* 40, 290 '1949').
- (٥٥) هيرودوت الكتاب الرابع الفصل ٥٣ .
- (٥٦) *Ceta te mekala anacantha ta anatocaius caleusi* . D'Arcy W. Thompson, Greek fishes (London: Oxford University Press 1947), p. 16 (*Isis* 38, 254 (1947-48) ). For salted fish see Koehler: "Tarichos," *Mém. Acad. St. Pétersbourg* (1832), pp. 347-488. Article "Salgama (*halmaia*) in Daremberg and Saglio, *Dictionnaire des antiquités grecques et romaines* (Paris 1877-1919) vol. 4, p. 1014.
- إن تاريخ كافي لم يكتب بعد مع أن كوهلر خصص له فصلاً قصيراً . وفي رأيه أن المؤلف القديم الوحيد الذي أشار إليه . كان دفلوس السيفنوسى Diphilos of Siphonos في القرنين الرابع والثالث كما ذكره اثيناوس التفراطي .
- (٥٧) هيرودوت الكتاب الثاني ، الفصل ٥ . والكتاب الثاني الفصل ١٢ .
- (٥٨) هيرودوت الكتاب الثاني ، الفصل ١٢ .
- (٥٩) هيرودوت الكتاب السابع الفصل ١٢٩ .
- (٦٠) هيرودوت الكتاب الرابع الفصل ٣٦ ، كما هو مترجم في كتاب Greek Geography تأليف Eric Herbert Warmington ص ٢٢٩ . وهذه المجموعة تضم مختارات طويلة من هيرودوت ، توضح آراءه عن الحدود العامة ، للأقسام المأهولة من الأرض . وعن خصائص كل قسم من هذه الأقسام .
- (٦١) هيرودوت الكتاب الثالث ، الفصل ١١٥ . وتحقيق موضع نهر الأريدانوس ، وموضع جزر القصدير ، مثل جيد على تخبط الجغرافيا القديمة . وقد خلط بين نهر الأريدانوس والبو ، والرون والراين . كما اختلطت جزائر القصدير ( جزائر الكيتريدس ) ، بجزر صقلية ، وكورنوال ، وبالجزر التي تقع على ساحل بريتانى ، أو على ساحل إسبانيا .
- (٦٢) تقع في المقدمة على خلاصة للآراء التي قيلت بشأن الأنهار الإفريقية الكبيرة ، كالنيل والنيجر والسينغال والكونغو أيضاً ( المقدمة ج ٣ ص ١١٥٨ - ١١٦٠ ) . وقد ذكرت المراجع هناك .
- (٦٣) إن الإنسان ، لديه وسائل أخرى . فهو يستطيع أن يتبع ، في طائرة ، مجرى نهر من الأنهار كالنيل مثلا من منبعه إلى مصبه ، فيراه على حقيقته بسرعة .
- (٦٤) هيرودوت الكتاب الخامس ، الفصل ٥٢ - ٥٣ .
- (٦٥) هيرودوت هو الذى قال : ١٥٠ ستاديا لليوم الواحد ( الكتاب الخامس ، الفصل : ٥٣ ) وطول الستاديا ، يختلف ، بين زمان وزمان ، ومن موضع إلى موضع آخر .
- وإذا اعتبرنا أن طول الليل ٧,٥ أو ١٠ ستاديا، فإن ١٥٠ ستاديا في اليوم تساوى ٢٠ ، أو ١٥

ميلا في اليوم ، على التوالي . ولمعرفة طول الستاديا راجع :

Aubrey Diller, "The ancient measurements of the earth," *Isis* 40, 6-10 (1949)

H.F. Tozer, *History of ancient geography* pp. 90-91, XIV. لبحث أمر الطريق انظر .

Introduction vol. 3, p. 1786. : ولأمر المصالح البريدية القديمة الشرقية انظر :

(٦٧) هيرودوت الكتاب الثالث ، الفصول : ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، والكتاب الرابع ،

الفصل ٤٤ .

(٦٨) المرجع السابق الكتاب الثالث ، الفصل ١٠٦ ، والكتاب السابع ، الفصل ٦٥ .

(٦٩) تبعاً للاصطلاحات المستعملة في مجلة *Isis* ، أفضل أن استعمل كلمة ethnology

(علم خصائص الشعوب) ، للدلالة على دراسة أخلاق الجنس البشرى وعاداته . أما كلمة anthropology

(علم الأجناس البشرية) فإنني أشير بها إلى دراسة الجنس البشرى من الناحيتين التشريحية ، والجنسية .

(٧٠) كالزواج بالسي والشراء والزواج الاشتراكي ، وقانون السيد ، والزواج بالأجنبيات

(من غير العشيرة) ، وتمدد الأزواج ، والبناء الديني ، وعدم العفة قبل الزواج ، إلخ . . .

(٧١) اللغة السكيتية ، كانت في الغالب فرعاً من اللغة الإيرانية ، الفرغ الشمالي الغربي

منها . راجع : A Meillet and Marcel Cohen, *Les langues du Monde* (Paris 1924) pp. 36,

42, 176, 185 (*Isis* 10, 298 (1928)).

(٧٢) هيرودوت ، الكتاب الرابع ، الفصل : ٧٤ ، ٧٥ . وشجرة القنب ، تحدث اليوم

اضطراباً شديداً في بلادنا ، وهي تحمل الاسم المكسيكي : Marijuana

(٧٣) انظر : Ferdinand Keller of Zurich (1800-1881); *Isis* 26. 308-311 (1934)

مع الرزم وأقدم تاريخ لسكنى البحيرات يعود إلى العصر الحجري . وقد ظلت منتشرة ، في بعض عصور

ما قبل التاريخ ، وفي العصور التاريخية أيضاً .

(٧٤) راجع هيرودوت الكتاب الخامس الفصل : ١٦ . أبقرط : الرياح ، والمياه والأمكنة ،

١٥ . وكلا النصين موجود باللغة الإنجليزية ، في ملاحظتي عن « أول عرض لبقايا منازل الركائز

الخشبية ، في عصور ما قبل التاريخ ، كما تتضح في رسم كونراد وترز سنة ١٤٤٤ » ، راجع :

*Isis* 26, 449-451 (1936), 1 pl.; 32, 116 (1947-49). W.R. Halliday, "The first description

of a lake-village," *Discovery* 1, 235-238 (1920) (*Isis* 4, 127 (1921-22) . Robert Munro,

*Encyclopedia of Religion and Ethics*, vol. 7 (1915), PP. 773-784.

(٧٥) هيرودوت الثاني ، الفصل : ٣٢ .

Paul Monceaux, "La légende des pygmées et nains de l'Afrique équatoriale." (٧٦)

*Revue historique* 47, 1-64 (1891); *Introduction*, vol. 3, pp. 1227, 1860.

(٧٧) هيرودوت الكتاب الأول ، الفصل : ٧٤ .

P.J. Hamilton-Gricerson, "Artificial brotherhood". *Encyclopedia of Religion* (٧٨)

*and Ethics*, vol. 2 (1910), pp. 857-871.

(٧٩) هيرودوث الكتاب الثاني ، الفصل : ١١٣ .

(٨٠) المرجع السابق ، الفصل ٦٤ - ٧٥ .

(٨١) لقد جلا هذه القضية John Ferguson McLennan (1827-1881), James George Frazer (1854-1941), Totemism (Edinburgh, 1887), Totemism and exogamy (4 vols. London, 1910).

لاحظ أن السير جيمس توفى في سنة ١٩٤١ وانظر كم هي قرية من زمننا

(٨٢) لمقدمات هذه الموضوعات انظر Goblet d'Alviella on

Animism, vol. 1 (1908) pp. 535-537; R.R. Marett on tabu, vol. 12 (1922), pp. 181-185;

E. Sidney Hartland on totemism vol. 12 (1922) pp. 393-407.

وإن هذه الموضوعات التي كان يختلف في أمرها من نصف قرن أصبحت الآن مقبولا في كل كتاب مدرسي في علم خصائص الشعوب .

Arnold van Gennep, *Relegions, moeurs et légendes* (Paris 1909), vol. 2 p. 174. (٨٣)

(٨٤) نيكياس (١٣ - ٤٧٠) ، كان ارستقراطياً أثينياً ، وقائداً عاماً . وقد سعى للصلح ، واستطاع في سنة ٤٢١ ، أن يحصل على معاهدة السلام تلك ، التي سميت باسمه . ولم يكن راضياً عن حملة صقلية ، إلا أنها قررت رغباً عنه ، وعين قائداً لها . وقد أعدمه السيراكوزيون سنة ٤١٣ .

(٨٥) نحن لا نعلم هل كانت له أملاك هناك أم لا . ولكنه منح امتيازاً لاستغلال بعض المناجم . وكانت هذه المناجم تقع في سكبت هايل ، على ساحل تراقيا ، المقابل لجزيرة تاسوس . وتقع على بعد قليل منها ، إلى جهة الغرب ، اسكي قولة الحديثة ، أو قولة القديمة . ولنذكر أن قولة هذه ، كانت أول بقعة أوروبية نزل فيها القديس بولس . ولد فيها محمد على سنة ١٧٦٩ ، وهو مؤسس الأسرة العلوية في مصر . راجع : *Isis* 31, 97 (1939-40)

(٨٦) توكيديديس ، ٢٦/٥ .

(٨٧) المرجع السابق .

(٨٨) المرجع السابق ٢٢/١ .

(٨٩) المرجع السابق ٢٣/٥ .

(٩٠) المرجع السابق ٤٧/٥ .

(٩١) المرجع السابق ٦٥/٢ .

(٩٢) المرجع السابق ٣٥/٢ - ٤٦ .

(٩٣) المرجع السابق ٤٠/٢ .

(٩٤) المرجع السابق ٤٦/٢ .

(٩٥) المرجع السابق ٣٦/٣ .

(٩٦) المرجع السابق ٣٧/٣ .

(٩٧) المرجع السابق ٨/١ .

- (٩٨) المرجع السابق ٢٢/١ .
- (٩٩) The Peri Stephanu (حول التاج) ، هو أشهر خطاب لديموستين ، أعظم خطباء اليونان قاطبة (عاش من سنة ٣٨٥ - ٣٢٢) . وقد ألقاه سنة ٣٣٠ ، تبريراً لخصومته مع فيليب الثاني المقدوني ، التي استمرت أربعة عشر عاماً . وقد انتصر فيليب في معركة شيرونيا (سنة ٣٣٨) ، التي كانت نهاية استقلال اليونان ، وتوفي سنة ٣٣٦ . وواصل ديموستين مقاومته للإسكندر ، ولكنه خسر المعركة .
- (١٠٠) ثوكيديدس ٢٢/١ .
- (١٠١) أصبح الآن من الممكن تسجيل الخطاب، والاحتفاظ به كما لفظ للأجيال، كأنه شيء حي .
- (١٠٢) ثوكيديدس ٤١/٢ .
- (١٠٣) ثوكيديدس ٤٧/٢ - ٤٩ .
- (١٠٤) المقدمة ج ٣ ص ١٦٥٦ . Introduction etc.
- (١٠٥) Isis 29. 406 (1938).
- (١٠٦) Isis 37, 124 (1947).
- J.F.D. Shrewsbury "The plague of Athens", *Bull. History of Medicine* 4, (١٠٧) 1-25 (1950); *Commentary* by William MacArthur, *ibid.* 51, 214-215 (1950)
- J.H. Finley, Jr., *Thucydides* (Cambridge: Harvard University Press, 1942) (١٠٨)
- Introduction vol. 3, pp. 1650, 1668, 1860, 1868; George انظر لبحث ال (١٠٩) Barger, *Ergot and ergotism* (London: Gurney and Jackson, 1931).
- (١١٠) ثوكريديوس : « طبيعة الأشياء » . De rerum natura ج ٦-١١٣٨-١٢٨٦ .
- (١١١) ثوكيديدس ٩٤/٢ .
- (١١٢) هنا إشارات مشابهة في هيرودوت ٣/٩ ، ١١٥/٦ ، ١٢١ ، ١٢٤ . وعند كسينوفون وغيره من المؤرخين . راجع : Tozcr. *History of ancient geography*, pp. 328-334 .
- Wolfgang Riepl, *Das Nachrichtenwesen des Altertums* (492 pp; Leipzig, 1913).
- وهو يعالج بالأخص العصور الرومانية
- (١١٣) ثوكيديدس ٢٨/٢ .
- (١١٤) المرجع السابق ٥٢/٤ .
- (١١٥) المرجع السابق ٥٠/٧ .
- (١١٦) كنيديوس شبه جزيرة ضيقة في الزاوية الجنوبية الغربية من آسيا الصغرى وهي قرية من هاليكارناسوس وكوس .
- (١١٧) راجع بشأن معركة كوناكسا سنة ٤٠١ ، تعليق رقم ٢٤ . وقد شهد كسينوفون وكتيسياس المعركة ، وكان كل منهما في طرف .
- (١١٨) كان يحكم قبرص الفرس والفينيقيون . وفي سنة ١١٤ ، حدث انتعاش هلبني ، بقيادة

ايفاجوراس (٤٣٥ - ٣٧٤) ، الذى يتسبى إلى سلاميس ( كانت سلاميس المدينة اليونانية الرئيسية فى قبرص . وكانت على الشاطئ الشرقى ، على مرأى النظر من سوريا ) . وقد انضم إلى ايفاجوراس كثير من اللاجئين اليونانيين ، وكان أشهرهم أمير البحر كونون الأثينى ( ٤٤٤ - ٣٩٢ ) الذى أعاد تنظيم الأسطول اليونانى ، ودمر الأسطول الإمبرطرى فى معركة كينيدوس سنة ٣٩٤ .

R. Henry, *Ctesias, la Perse, l'Inde*, Les sommaires de Photius (Brussels: Office des Publicité, 1947) (Isis 39, 242 '1948')

John Gilmore London 1888 Persica / وضعها جون جلمور (١٢٠) إن أحسن طبعة لـ Persica / وضعها جون جلمور (١٨٨٨) وهى باليونانية فقط ولكنها محشاة ومفهرسة ، أما بصدد Indica فانظر الترجمة لـ J. W. McCrindle (Calcutta, 1882) ولا نص يونانى معها ولكنها محشاة ومفهرسة .

(١٢١) ديودورس الصقل ١٣/٢ . هاستون هى بيسوتون الحديثة (راجع دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول (١٩١٢) ، ص ٧٣٤) ، وهى تقع فى غربى ايران ، قرب كرمانشاه . والاسم الذى استعمله كتيبياس هو (Bagistanon oros) وهو مشتق من كلمة (Bagastana) ، بالفارسية القديمة ، وتعنى مكان الإله (وهو متراس) . وحل رموز الخط المسمارى ، الذى قام به سير هنرى رولنسون ، (١٨٤٧) . كان بداية علم الأشوريات ، راجع :

Leonard William King and Reginald Campbell Thompson, "The Sculptures and Inscription of Darius the Great" (London, British Museum, 1907)

Diodoros of Sicily, ii, 12; translation by Charles Henry Oldfather, in Lock (١٢٢) Classical Library.

(١٢٣) هيرودوت ١/١٧٩ .

(١٢٤) هى (هيت الحديثة) ، وكانت على مسير ثمانية أيام من بابل ، على مقربة من الفرات ، إلى جهة الغرب . وكانت محجراً للقتار الذى استعمل فى بناء أسوار بابل .

(١٢٥) تلفظ كلمة elleboros فى اللهجة الأيونية بنفس هادئ ، وفى اللهجة الأتيكية بنفس غليظ . وهذا يفسر كتابتها فى الإنجليزية على صورتين ، هما ellebore و Hellebore والأولى منهما مهجورة الآن . وكانت العروق المجففة وجذور أنواع الملبور (الخربق الأسود) المختلفة تستعمل كثيراً عند اليونان والرومان كمقاقير . وهى تحتوى على أنواع مختلفة من شبه القلويدات ، التى تعمل كخدرات ومسكنات . وتستعمل من الخارج لقتل الحشرات . وهناك إشارات كثيرة إلى الخربق الأسود فى مجموعة ابقراط . وهى أقل بكثير مما عند جالينوس راجع : Littré, *Oeuvres complètes d'Hippocrate*, vol. 10, pp. 628-630; Sec: K.G. Kuhn (20 vols.; Leipzig, 1821-1833) vol. 20, p. 296. وكان الأطباء الأبقراطيون يستعملونه لأغراض كثيرة مختلفة .

Oribasios of Pergamon (IV-2), physician to Julian the Apostate. (١٢٦) والنص موجود فى Iatricai Synagogai, VIII, 8, وانظر أيضاً الطبعة الممتازة التى حررها Bussemaker and Daremberg (6 vols.; Paris 1851-1876), vol. 2 (1854), p. 182.

(١٢٧) كما جاء فى سترابون ١/١٥ ، ٥ ، ٢ ، ٥ .